أَسْئِلَةٌ بَيَانِيَّةٌ

فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

تأليف

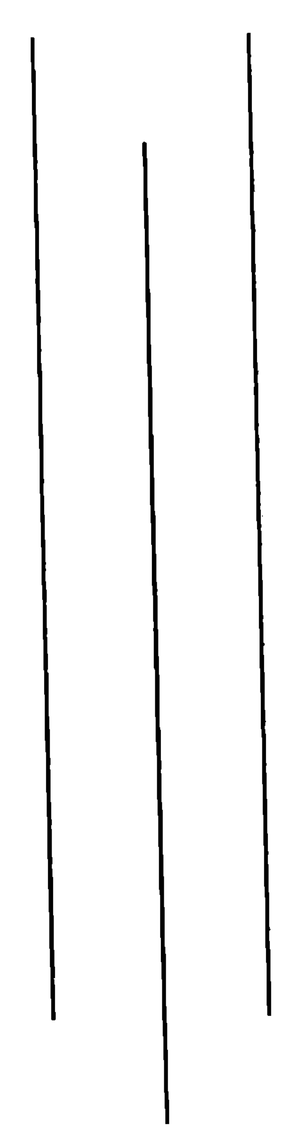
الدكتور فاضل صالح السَّامَرَّائِيّ

الجُزْءُ الأَوَّل



دار ابن كثير


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com



أَسْئِلَةٌ بَيَانِيَّةٌ

فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

الجُزْءُ الأَوَّلُ

● الموضوع: علوم القرآن
العنوان: أسئلة بيانية في القرآن الكريم 2/1
تأليف: الدكتور فاضل السامرائي

الطبعة الثانية

1434 هـ - 2013 م
ISBN 978-614-415-040-5



● الطباعة: مطبعة IPEX - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
● الورق: أبيض / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
● القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 554 / الوزن: 1380 غ



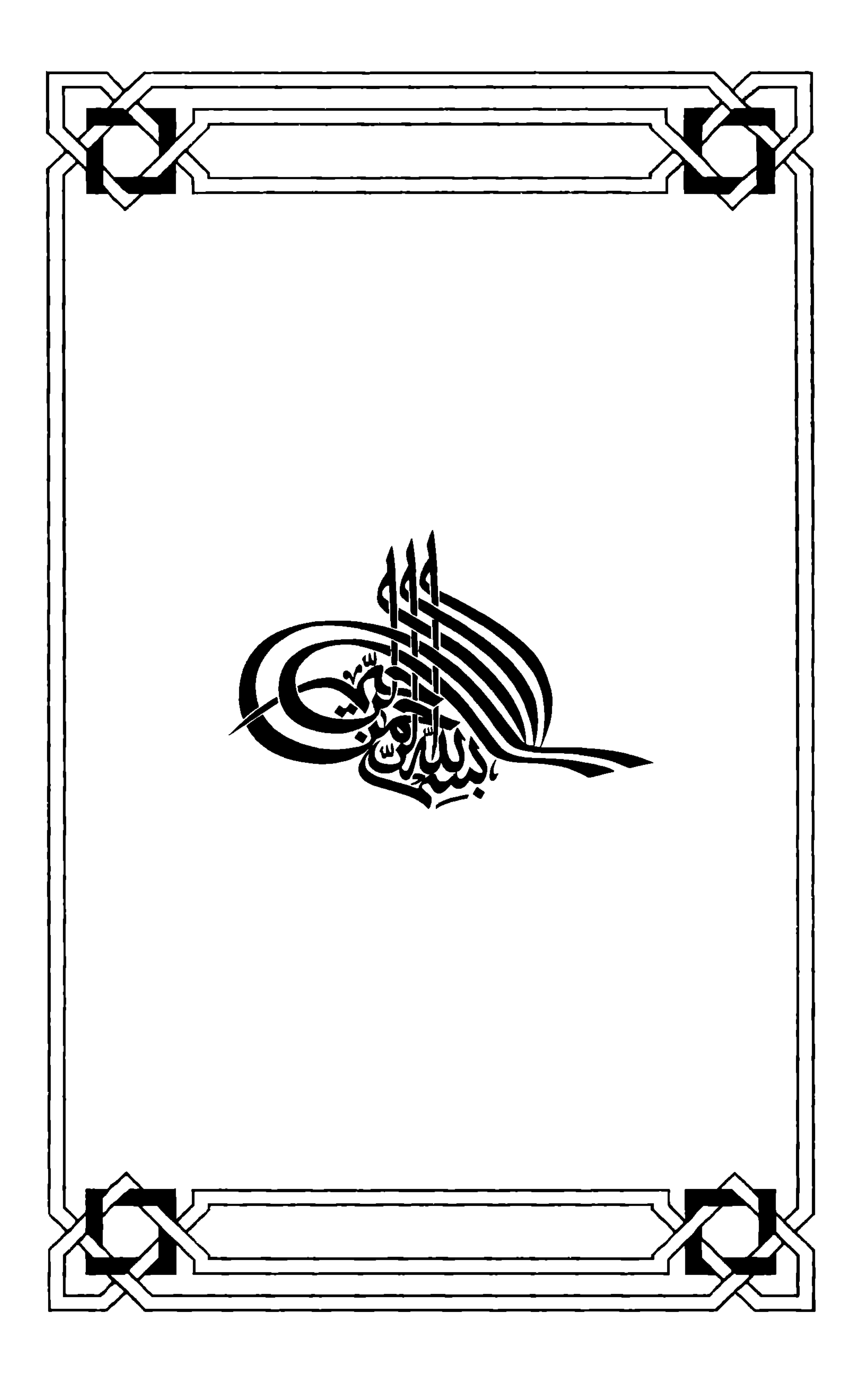
دمشق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني . جادة ابن سينا . بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر . خلف دبوس الأصلي . بناء الحديقة - تلفاكس : 817857 01 - جوال : 204459 03
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



تأليف
الدكتور فاضل صالح السامرائي

الجزء الأول




بسم الله الرحمن الرحيم

المُقدِّمة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم ، والصَّلاة والسَّلام علىٰ السِّراج المنير ، سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين ، مصابيح الهُدىٰ وأئمَّة التُّقىٰ ، ومَن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين ، وبعد :

فهٰذه أسئلةٌ ورَدَ إليَّ كثيرٌ منها علىٰ طريق التلفاز ، بينما كنتُ أتحدَّث في برنامج (لمساتٌ بيانيةٌ في نصوص من التَّنزيل) في قناة الشَّارقة الفضائية في دولة الإمارات العربية المتحدة ، وورد القسم الآخر عن طريق المراسلة .

وقد أجبتُ عن قسم غير قليل منها عبر البرنامج ، وبقي قسم آخر لم يتسنَّ لي الإجابةُ عنه .

وفي هٰذا الكتاب ، حاولتُ الإجابةَ عن مئتي سؤالٍ مما سبق أن أجبتُ عنه ، أو لم يتسنَّ لي ذٰلك .

وقد رتَّبتُ موضوعات الأسئلة علىٰ حسب تسلسلها في المصحف الشَّريف في الغالب ، ولم يختلف هٰذا المنهج إلا نادراً ، وذٰلك فيما أراه أنه هو الأنسب ، كأن يكون بين الموضوعين ارتباطٌ ما ، وإن كانا

متباعدين في المصحف ، وذٰلك كالسُّؤال في آية النور من سورة النور ، عن سبب إخبار ربنا عن نفسه بأنه نور السمـٰوات والأرض ، ولم يخبر عن نفسه أنه ضياء ، مع أن الضياء أقوىٰ من النور ، والسُّؤال في آية من سورة الأنبياء عن سبب الإخبار عن التَّوراة أنها ضياء وفي مواضع أخرىٰ أنها نور ، فرأيت من المناسب أن أضعها بجانب بعضٍ .

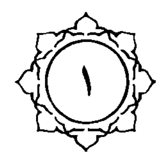
أما ما لم تكن بينهما علاقة من نوع ما ، فرتبته بحسب ما ورد في المصحف ، وهو الأعم الأغلب .

وأرجو من القارئ العزيز أن يعذرني إذا كنت عنده غيرَ مصيبٍ ، وألا يبخل عليَّ بدعوة يسألُ ٱلله فيها أن يعطيني أجر أحدِ المجتهدين ، وأن يبصِّرني بالصَّوابِ .

أسألُ ٱلله سبحانه أن يُلهمنا الرُّشد ويَمُنَّ علينا بالسَّداد في القول والعمل إنه أكرم مسؤولٍ ، وأعظم مسؤولٍ .

فاضل السَّامرَّائي

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقـرةِ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢] .

وقال في سورةِ لقمان : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان : ٢ ـ ٣] .

سؤالٌ

لماذا زاد الرَّحمة علىٰ الهدىٰ في آية لقمانَ ؟

الجواب

إن آيةَ البقرةِ في المتقين ، والمتَّقي هو الذي يحفظ نفسه .

وأما آية لقمان ففي المحسنين ، والمحسن هو الذي يُحسِن إلىٰ نفسه ، وإلىٰ غيره ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

وقال : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء : ٣٦] .

وقال : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء : ٧] .

جاء في (المفردات) للرَّاغب : « الإحسان علىٰ وجهين :

أحدهما : الإنعام علىٰ الغير .

يقال : أحْسِن إلىٰ فلان .

والثَّاني : إحسانٌ في فعله ، وذٰلك إذا علم علماً حسناً ، أو عمل عملاً حسناً »[1] .

فلمَّا ذكر في آية لقمانَ أنهم محسنون ، زاد لهم الرَّحمة علىٰ الهدىٰ ، وذٰلك أنهم زادوا في الوصف علىٰ المتقين بأن أحسنوا إلىٰ غيرهم ، وإلىٰ أنفسهم ، فزاد ٱلله لهم في الجزاء .

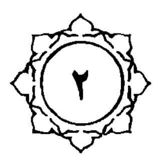
ثم إن الإحسان إلىٰ الآخرين إنَّما هو من الرحمة ، فزاد ٱلله لهم الرَّحمة لما رحموا الآخرين .

ولم تقتصر هٰذه الزِّيادة لهم في الدنيا ، بل زاد ٱلله لهم الجزاء في الآخرة أيضاً ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ ﴾ [يونس : ٢٦] .

فكما زادوا في الدنيا من الخير ، زاد ٱلله لهم فيه في الدنيا والآخرة ، والجزاء من جنسِ العملِ .

* * *

(١) المفردات (حسن) .



قال في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٣ ـ ٢٤] .

وقال في سورة يونس : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس : ٣٨ ـ ٣٩] .

وقال في سورة هود : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود : ١٣ ـ ١٤] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا قال في البقرة : ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ بذكر ﴿مِّن﴾

مع المِثْل ولم يذكرها في يونسَ ، ولا في هود ؟

٢ ـ لماذا قال في البقرة : ﴿ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ، وقال في يونسَ وهودٍ : ﴿ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ؟

٣ ـ لماذا شدَّد التَّحذير في البقرةِ ، فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل مثل ذٰلك في يونس ، ولا في هود ؟

٤ ـ ولماذا قطع بعدمِ الفعلِ بعد الشَّرط في البقرةِ ، فقال : ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ ؟

الجوابُ

١ ـ إن معنىٰ : (ائتني بشيء من مثله) يختلف عن قولك : (ائتني بشيء مثله) ، فإن قولك : (ائتني بشيء من مثله) يعني افتراض أن له مثْلاً ، فتقول : ائتني بشيء من هـٰذا المثلِ .

يقال : إن لهـٰذا الشَّيء أمثالاً .

فتقول : ائتني بشيء من مثله ؛ أي من هـٰذه الأمثالِ .

أما قولك : (ائتني بشيء مثله) فإنك لا تفترض أن له مثلاً ، فقد يكون أن له مثلاً ، أو لا يكون ، فاستحدِثْ أنت مثله ، كأن تقول لصاحبك : ائتني بشعرٍ مثل هـٰذا ؛ أي بشعرٍ مماثلٍ له ، سواء كان مستحدثاً أم موجوداً .

وبعد هٰذه المقدمة في التفريق بين معنيي (من مثله) و(مثله) نقول :

٢ ـ قوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أعمُّ من قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ في يونس وهود ؛ لأن مظنة الافتراء واحد من أمورِ الرِّيبةِ . فالريبة قد تكون من مظنة الافتراء ، أو غيره ، فإنهم قالوا : ساحر ، أو مجنون ، أو يعلّمه بشر ، وما إلىٰ ذٰلك .

٣ ـ قوله في البقرةِ : ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يحتمل أن يكون من مثل القرآن ، أو من مثلِ الرسولِ ، أي من شخص أميٍّ لم يتعلم .

وهو أعم مما في الآيتين في يونس وهود ، فإنهما نصٌّ في أن المطلوب أن يأتوا بمثل القرآن .

فناسب العمومُ العمومَ ، وإن كان المعنىٰ الأول هو الأظهر .

٤ ـ حذف مفعولي ﴿ تَفْعَلُوا۟ ﴾ و﴿ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ مجانسةً للإطلاقِ ، وإن كان المقصود معلوماً .

٥ ـ قال في يونس وهود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ فقال : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ أو : ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ ؛ أي افتروا أنتم كما افترىٰ .

٦ ـ لا يحسن بعد قوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أن يقال : (فائتوا بسورة من مثله مفتراة) من جهتين :

الأولىٰ : أنهم لم يقولوا : (افتراه) كما في آيتي يونس وهود .

والجهة الأخرىٰ : أنه لا يحسن بعد قوله : ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ أن يقول : (مفتراة) لأنه افترض أن له مثلاً ، فهو إذن ليس مفترًىٰ .

٧ ـ وعلىٰ هـٰذا لا يحسن أن يقال : (أم يقولون افتراه فائتوا بسورة من مثله) ؛ لأنه افترض أن له مثلاً ، فهو إذن ليس بمفترًىٰ .

٨ ـ لا يحسن بعد قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ في يونس وهود أن يقال : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ .

فإنهم قالوا : (افتراه) وإذن ليس له مثلٌ . وقوله : (من مثله) يقتضي أن له مثلاً ، وإنما ينبغي أن يقال : (فائتوا بسورة مثله) ، أي : افتروا أنتم أيضاً .

٩ ـ لم يقل في البقرةِ : (وادعوا من استطعتم من دون ٱلله) لأنه افترض أن له مثلاً ، ومعنىٰ ذٰلك أن هناك مَن استطاع أن يفعل ، إذن فليأتوا بشيء مما فعله المستطيع . فإن الغرض من دعوة من استطاعوا أن يفعلوا مثله ، وهو قد افترض أن له مثلاً ، فدعاهم إلىٰ أن يأتوا بشيءٍ مما فعله هـٰؤلاء .

١٠ ـ قال : ﴿ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي : ادعوا مَن يشهد لكم أن هـٰذا الكلام مثل هـٰذا .

وعلىٰ هـٰذا فالآية تقتضي دعاء مَن استطاعوا ، ودعاء الشُّهداء ، فالأوَّلون دعاهم بقوله : ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ ؛ لأنه افترض أن هناك مَن استطاع أن يأتي بمثله .

والشُّهداء دعاهم للشهادةِ .

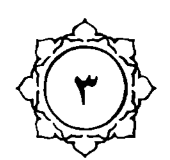
وهٰذا أوسع وأعمُّ فناسب العمومُ العمومَ .

١١ ـ ذكر بعد آيةِ البقرةِ أن يتقوا النَّار التي وقودها الناس والحجارة ؛ لأن الذي لا يؤمن بعد إقامةِ الحجةِ عليه ، ولم يستعمل عقله ، إنما هو بمنزلةِ الحجارةِ فقرن بينهما .

١٢ ـ لما قال في أوَّل سورةِ البقرةِ : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ ناسب أن يقول : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ .

كما ناسب أن يقطع بعدمِ الاستطاعةِ علىٰ الفعل ، بقوله : ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ ؛ لأنه ذكر ابتداءً أنه لا ريب فيه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[البقرة : ٤٩] .

وقال في سورةِ الأعرافِ [١٤١] : ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ البقرةِ : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ وقال في الأعراف : ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ ؟

الجوابُ

إنه قال في الأعراف في قصة موسىٰ ، قبل هٰذه الآية : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [١٢٧] ، فناسب قولُ فرعونَ فعلَه ، فقد قال : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ فقال : ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ وهو المناسب ، فقد فعل ما قاله وهدّد به .

هـٰذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرىٰ أن القتل أعم من الذَّبح ، وأن القصة في الأعراف مبنيةٌ علىٰ العمومِ والتفصيلِ في موقف فرعونَ من بني إسرائيلَ ، فإنه لم يَرِد في سورة البقرة ذكرٌ لفرعون مع بني إسرائيل ، ولا فتنته لهم إلا هـٰذه الآية .

في حين أن القصة في الأعرافِ فَصَّلت في ذكرِ الحوادثِ قبل موسىٰ وبعده ، وذكرت فتنة فرعونَ لبني إسرائيلَ ، وذكرت مجيء موسىٰ إلىٰ فرعون وتبليغه بالدعوة ، وذكرت موقف فرعون من السَّحرةِ وتهديد فرعون لبني إسرائيل بالقتل والإذلال والإيذاء ؛ حتىٰ قالوا لموسىٰ : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [١٢٩] .

وذكر الآيات التي حلَّت بفرعون وقومه : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [١٣٠] .

وتستمر القصَّة في ذكرِ التفاصيلِ :

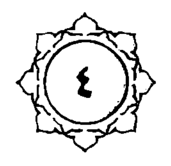
فناسب العمومُ في الأعراف العمومَ في اللفظِ ، وهو التقتيلُ .

ثم إنه لم يرد في البقرة ذكرٌ لهارون في هـٰذه القصةِ ، وأما في الأعراف ، فقد ورد ذكره في أكثرِ من موقفٍ ، منها قول السَّحرةِ : ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [١٢١ ـ ١٢٢] .

وورد استخلافه في قومه ، فقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾ [١٤٢] .

فناسب ذٰلك أيضاً ذكرُ التقتيلِ ، فإن ذكر موسىٰ وهارون أعمُّ من ذكر موسىٰ وحده ، فناسب العمومُ العمومَ .

* * *



لماذا قال في البقرة : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة : ٥١] .

وقال في الأعراف : ﴿ ۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف : ١٤٢] ؟

الجوابُ

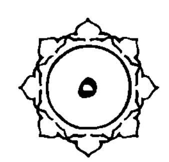
إن السِّياق في الأعراف في تفصيل ما حصل في هٰذه المواعدةِ ، فقد قال : ﴿ ۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [١٤٢ ـ ١٤٥] .

في حين أن السِّياق في البقرةِ كان مجملاً ، فإنه لم يتعدَّ آيةً واحدةً أو جزءاً من آيةٍ ، وهي قوله : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [٥١] .

وبعدها قوله : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ . . . ﴾ بل إن ما يخصُّ المواعدةَ هو قوله : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وبعده يتعلق باتخاذِ العجلِ كما هو ظاهر .

فناسب التفصيلُ التفصيلَ والإجمالُ الإجمالَ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ٨٦] .

وقال فيها أيضاً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٦١ ـ ١٦٢] .

وقال في آلِ عمرانَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٧ ـ ٨٨] .

سؤالٌ

لماذا قال في الآيةِ السادسةِ والثمانين : ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ ، وقال في الآيتين الأخريين : ﴿ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ ؟

الجوابُ

إن الآيةَ الأولىٰ إنما هي في سياقِ القتلِ والحربِ والأسرِ ، والأُسارىٰ إنما هم من أوزارِ الحربِ ، ومَن في هٰذه الحال إنما يبتغي

النصر ، فنفىٰ ذٰلك عنهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [٨٤ ـ ٨٦] فناسب ذٰلك ذكر النصر .

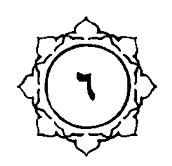
وأما الآيتان الأخريان ، فقد ذكرتا أن عليهم لعنةَ ٱلله والملائكةِ والناسِ أجمعين ، وذكر بعد ذٰلك أنهم خالدون فيها ، لا يخفَّفُ عنهم العذابُ ولا هم ينظرون .

واللَّعنة هي الطَّرد والإبعادُ من رحمةِ ٱلله ، والمطرودُ لا يُنظر إليه ؛ لأنه يُبْعد .

والنظرُ قد يكون معناه التأخيرَ والإمهالَ ، وقد يكون معناه نظر الرحمةِ . وكلاهما منفي .

أما الأول فلأنه مطرودٌ فكيف يؤخَّرُ ؟ وكذٰلك بالنسبةِ إلىٰ المعنىٰ الآخر ، فناسب كل تعبيرٍ مكانه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة : ١١٤] .

وقال في سورةِ المائدةِ : ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣] .

وقال في سورةِ الحجِّ : ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج : ٩] .

سؤالٌ

لماذا قدَّم الخزي علىٰ الدُّنيا في آيةِ المائدةِ ، فقال : ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ وأخّره عنها في آيتي البقرة والحج ، فقال : ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ؟ .

الجوابُ

إن الخزي المذكور في آيةِ المائدةِ أظهر للعيان مما في آيتي البقرة والحج ، وهو ثابت لا يزول ، بخلاف ما في آيتي الحجِّ والبقرةِ ، فإنه غير ظاهرٍ ذٰلك الظهورِ ولا ثابت ذٰلك الثباتِ ، فقد قال تعالىٰ في آيةِ

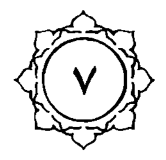
المائدةِ : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، في حينِ قال في البقرةِ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فقد ذكر عن هٰؤلاءِ أنهم لا يدخلونها إلا خائفين ؛ أي لا يدخلون المساجدَ إلا خائفين ، فالخوف مقارنٌ للدخولِ ، فإذا انتفىٰ الدخول انتفىٰ الخوف ، ثم إن الخوف أمرٌ قلبيٌّ غير ظاهرٍ للعيان ، فالخزي المذكور في آيةِ المائدةِ أظهرُ وأشدُّ .

وقال في الحجِّ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [٨ ـ ٩] ولم يذكر الخزيَ الذي سيلحقهم في الدُّنيا .

فالتَّقتيل ، والتَّصليب ، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف ، والنَّفي من الأرض ، أظهر خزياً وأشد عقوبةً في الدنيا مما ذكره في الآيتين الأخريين . فناسب تقديمه في آيةِ المائدةِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ بإفرادِ الملةِ ولم يقلْ : حتىٰ تتبع ملتيهما ؟

ولماذا جاء بـ : (لا) في قوله : ﴿ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ ولم يقلْ : (ولَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ) ؟

الجوابُ

١ ـ الجواب عن السُّؤالِ الأول أنه لو قال : (حتىٰ تتبع ملتيهما) لكان المعنىٰ أن اليهود لا يرضون حتىٰ تتبع الملتين ، وأن النَّصارىٰ لا يرضون حتىٰ تتبع الملتين ، وهـٰذا غير مرادٍ ولا يصحُّ .

٢ ـ أما الجواب عن السُّؤال الثاني ، فإنه لو قال ذٰلك من دون (لا) أي : (ولن ترضىٰ عنك اليهود والنصارىٰ حتىٰ تتبع ملتيهما) كان المعنىٰ أنه لن يرضىٰ عنك الجميع ؛ حتىٰ تتبع الملَّتين .

ولو قال : (ولن ترضىٰ عنك اليهود والنصارىٰ حتىٰ تتبع ملتهم) احتمل ذٰلك معنيين :

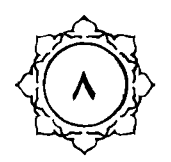
الأول : أن الجميع لا يرضون حتىٰ تتبع ملَّتهم .

بمعنىٰ أنك إذا اتبعت ملَّة اليهود ، رضيت عنك اليهود والنَّصارىٰ ، وإذا اتبعت ملة النَّصارىٰ ، رضيت عنك اليهود والنَّصارىٰ ، وهٰذا المعنىٰ لا يصحُّ وهو غير مراد .

والآخر : هو احتمالُ ما نصَّت عليه الآية أي : لن ترضىٰ عنك اليهودُ حتىٰ تتبع ملَّتهم ، ولن ترضىٰ عنك النَّصارىٰ حتىٰ تتَّبع ملَّتهم .

وما جاء في التعبيرِ القرآني نصَّ علىٰ المعنىٰ المراد من دون احتمالٍ آخرَ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

وقال في سورةِ الرعدِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد : ٣٧] .

سؤالٌ

١ ـ لقد قالَ تعالىٰ في آيةِ البقرةِ : ﴿ بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ ﴾ ، وقال في آيةِ الرَّعدِ : ﴿ بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ .

٢ ـ قال في آيةِ البقرةِ : ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

وقال في آيةِ الرَّعدِ : ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ .

فما سببُ هـٰذا الاختلافِ ؟

الجوابُ

١ ـ نقول أولاً : إن الفرقَ بين (الَّذي) و(مَا) مع أن كليهما اسمٌ

موصولٌ ، أن (الَّذي) اسمٌ موصولٌ مختصٌّ فهو مختصٌّ بالمفردِ المذكَّرِ .

وأن (مَا) اسمٌ موصولٌ مشتركٌ يشترك فيه المذكرُ والمؤنث المفرد والمثنىٰ والجمع .

وأنه حدد الأهواء في البقرةِ وعيَّنها بقوله : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴾ .

ولم يحددها في الرعد ، بل أطلقها ، غير أنه قال قبل هـٰذه الآية : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ ﴾ ولم يذكر هـٰذا البعض .

فجاء مع ذكرِ الأهواءِ المخصصةِ بالاسمِ الموصولِ المختصِّ وهو (الذي) .

وجاء مع ذكرِ الأهواءِ العامةِ بالاسم الموصول المشترك وهو (ما) .

ثم إن العلم المذكور في كل من الآيتين مرتبط بالسياق الذي ورد فيه ، فالمقصود بالعلم في قوله : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ ﴾ في آيةِ البقرةِ العلم بدين الإسلام ، وهو هدىٰ ٱلله وهو ما يقابل ملةَ اليهودِ والنَّصارىٰ وهو معلومٌ .

وأما العلم المذكور في آيةِ الرَّعدِ ، فلم يعيَّن ولم يحدَّد وهو ما يقابل ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ ﴾ فلم يذكر الأحزاب ، ولم يذكر البعض الذي تنكره .

فجاء في العلمِ المحدَّد المعلوم بالاسم الموصول المختص وهو

(الذي) ، وجاء في غير المعين بالاسم الموصول المشترك ، وهو (ما) فناسب كل تعبيرٍ موضعَه .

٢ ـ وأما من ناحيةِ الفاصلةِ في كل من الآيتين ، فإنه قال في البقرة : ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

وقال في الرَّعدِ : ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ ، والواقي أعمُّ من النَّصير ، فالواقي هو الحافظ ، و(وقىٰ) معناه : (حفظ) .

والواقي يكون عاقلاً أو غيره ، فقد يكون من الجماداتِ أو غيرها ، فالسقف واقٍ ، والملابس واقيةٌ ، قال تعالىٰ : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل : ٨١] .

وأما النصير فلا يكون إلا عاقلاً قادراً ، فجعل العامَّ وهو (الواقي) مع العام وهو عموم الأهواء ، والاسم الموصول المشترك (ما) ، وجعل الخاصَّ مع الأهواء المحددة ، والاسم الموصول المختص وهو (الذي) .

٣ ـ إن النصيرَ ينصرُ صاحبَه علىٰ الخصمِ والعدو ويمكِّنه منه ، وأما الواقي فإنه يحفظه منه وقد لا يتمكَّن من نصرهِ .

فوجودُ النصير أتم في النعمةِ من وجودِ الواقي ؛ لأنه ينصره ، وإذا نصره فقد وقاه ، وإذا عدم النصير فإنه لا يزال مطلوباً لخصمه ، أو مهضوماً حقه ، حتىٰ مع وجود ما يحفظه أو مَن يحفظه ، فإن الحافظ قد يخفي مَن يحفظه في مكان لا يعلمه خصمه أو لا يصل إليه .

فجعل نفي النَّصيرِ ـ وهو النعمة الأتم ـ مع الوزرِ الأعظمِ ، وهو

ترك ملة الإسلامِ إلىٰ ملة اليهودِ أو النَّصارىٰ ، وجعل نفي الواقي الذي هو دون ذٰلك ، مع ما هو أقل ، وهو إنكار بعضِ الأحزابِ بعضَ ما أنزل إليه .

وقد تقول : لقد قلتَ في النقطة السَّابقة إن الواقي أعم من النصير ، وإن مدلولَ الكلامِ ههنا ، أن النصير أعم ؛ لأنه ينصر صاحبه ، وإذا نصره فقد وقاه ، فهو واقٍ ونصيرٌ ؟

والحق أنه لا تناقض بين القولين ، فإن النصير لابد أن يكون عاقلاً قادراً ، والمنصور عليه لابد أن يكون عاقلاً قادراً ، فهو مختصٌّ بذوي العلمِ والقدرةِ ؛ ناصراً ومنصوراً ومنصوراً عليه ، فلا تقول : هو نصيره من العقرب ، أو من الحر أو من البرد ، ونحو ذٰلك .

وأما الواقي فهو عامٌّ فقد يكون عاقلاً أو غيره ، وكذٰلك ما تقيه منه ، فقد يكون عاقلاً أو غيره .

وما تقيه قد يكون عاقلاً أو غيره ، فإنك قد تقي بضاعةً من التَّلفِ ، وملابسَ من الوسخِ ، وماءً من القذرِ ونحو ذٰلك ، فلا الواقي ، ولا ما تقيه ، ولا ما تقيه منه ، يُشترط أن يكون عاقلاً بخلاف النَّصير ، فإن النصرة مختصةٌ بالعقلاءِ ، وليست كذٰلك الوقاية ، فاتضح ما قلناه .

٤ ـ ثم إن سياق كل آيةٍ يقتضي فاصلتها التي وردت فيها من جهة أخرىٰ ، فقد قال في آية البقرة : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ فإذا اتبع ملتهم كان منهم ، وأهل الملةِ ينصرون أتباعهم علىٰ غيرهم من أصحابِ المللِ الأخرىٰ ، فنفىٰ النصير عنه .

وأما آيةُ الرَّعدِ ، فلم يذكر فيها ذٰلك ، وإنما قال : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ فإذا اتبع أهواءهم في ذٰلك البعض ، فإنه قد لا يقتضي النصرة ومحاربة أعدائه ؛ من أجل ذٰلك البعضِ الذي قد يكون هيناً ، ولٰكن ربما يحفظونه إذا وقع في شدةٍ أو أَمْرٍ ، مما هو دون الدخول في مجابهةِ عدوه ، فنفىٰ الواقي ، فناسب كل تعبيرٍ موضعَه كما هو ظاهر .

٥ ـ هٰذا ومن الطريفِ أن نذكر أن كلمة (نصير) وردت في البقرةِ مرتين : مرة في هٰذه الآيةِ ومرة في الآيةِ السابعةِ بعد المئة ، ولم ترد في سورة الرعد ، وأن كلمة (واقٍ) وردت في سورةِ الرَّعدِ مرتين ، مرة في هٰذه الآية ، ومرة في الآية الرَّابعة والثلاثين ، ولم ترد في البقرة ، فناسب ذٰلك من جهةٍ أخرىٰ .

٦ ـ هٰذا علاوةً علىٰ تناسبِ فواصلِ الآياتِ في كلِّ سورةٍ ، فآية البقرة تناسب فاصلتها فواصل الآيات التي وردت في سياقها ، من مثل ﴿ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ، و﴿ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ، و﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وفاصلةُ آيةِ الرعدِ تناسب فواصل الآيات التي وردت في سياقها من مثل : ﴿ مَـَٔابِ ﴾ و : ﴿ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ و : ﴿ ٱلْحِسَابُ ﴾ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعه الذي ورد فيه من كل جهةٍ ، وٱللهُ أعلم .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وقال في سورةِ الأنعام : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام : ٨٩ ـ ٩٠] .

وقال في سورةِ الزمرِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ١٧ ـ ١٨] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ البقرةِ : ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ ﴾ ، فحذف العائد علىٰ (الذين) من الفعل (هدىٰ) .

وكذٰلك في آيةِ الأنعامِ ، فقد قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ ﴾ ، ولم يقل : (هداهم ٱلله) .

في حين قال في آيةِ الزمرِ : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فذكر العائد وهو الضمير (هم) المتصل بالفعل (هدىٰ) ؟

الجوابُ

إن هـٰذا النوعَ من الحذفِ إنما هو من الحذف الكثير في اللغة ، والفرق بين الذكر والحذف ، أن الذكر يفيد التوكيد كما هو معلومٌ ، ومعنىٰ ذٰلك أن قوله : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ آكدُ من قوله : ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ ؛ لأنه صرح بذكر الضمير .

أما الفرق بين آيةِ البقرةِ وآيةِ الزمرِ ، فإن آية الزمر تقتضي التوكيد أكثر من آية البقرة ، وذٰلك أن آية البقرة إنما هي في تحويلِ القبلةِ .

وأما آيةُ الزمرِ فإنها فيمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وهـٰؤلاء علىٰ درجةٍ كبيرةٍ من الهدىٰ ، فإنهم لا يكتفون باتباعِ الحسنِ ، وإنما يتبعون الأحسن ، ثم إنه جاء معهم بالفاء ، فقال : ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ ولم يأت بـ : (ثم) ، والفاء تدل علىٰ الترتيبِ والتعقيبِ ، فإنهم بمجرد سماع القول يتبعون الأحسن .

وقال : (يتّبعون) مضارع (اتّبع) بتضعيف التاء ، وهو علىٰ وزن (افتعل) الدالّ علىٰ المبالغة في الاتباعِ ، ولم يقل (يتْبعون) بالتخفيف ، وهـٰذه مرتبةٌ عظيمة أعلىٰ من مجرَّدِ اتباع القبلة ؛ لأن اتباع القبلة إنما هو من استماع القول واتباعه ، فهو واحد من الأمور المطلوبة .

فهداية المذكورين في الزمرِ أعلىٰ وآكد ؛ لأنها تشمل ما ذكره في آيةِ البقرةِ وغيره مما يريده ٱلله .

ولذا كان التوكيدُ في الزمرِ هو المناسب .

وأما آيةُ الأنعامِ فهي في جمعٍ من رسلِ ٱلله وأنبيائهِ وفيهم أولو العزمِ ، ولا شكَّ أن هـٰؤلاء أعلىٰ من المذكورين في آية الزمر .

قد تقول : ولماذا إذن لم يذكر الضَّمير مع فعلِ الهدايةِ ، مع أنهم أولىٰ بالتوكيد من غيرهم ؟

والجواب : إن ربنا ذكر كل أحوالِ الهدايةِ مع هـٰؤلاء الذين ذكرهم في سياق آيةِ الأنعامِ ، واستعمل كل أنواعِ التَّعديةِ لفعلِ الهدايةِ .

فقد عدَّىٰ الفعل إلىٰ المفعول مباشرةً بأسمائهم الظَّاهرة ، فقال : ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ. . . ﴾ إلخ .

فعطف هـٰؤلاء الأنبياء والرسل علىٰ نوح الذي هو مفعول ﴿هَدَيْنَا﴾ أي : ومن ذريته هدينا سليمان وأيوب ويوسف . . . إلخ ، ثمَّ عدَّىٰ الفعل إلىٰ ضميرهم أيضاً ، فقال : ﴿وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٨٧] ، فقال : ﴿وَهَدَيْنَـٰهُمْ﴾ فعدَّىٰ الفعل إلىٰ ضميرهم ، كما قال : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ وزاد علىٰ ذلك الاجتباء .

ولم يكتفِ بذاك ، بل قال أيضاً : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فحذف مفعول (هدىٰ) وهو الضَّمير العائد علىٰ الرسل ، فجعل الكلام علىٰ

صورة المطلق فأطلق المعنىٰ ، إذ يحتمل هـٰذا التعبير معنيين :

الأول : أولـٰئك الذين هداهم ٱلله ، وهو الأظهرُ .

والثاني : أولـٰئك الذين هدىٰ ٱلله بهم .

فصار المعنىٰ : أولـٰئك الذين هداهم ٱلله وهدىٰ بهم ، ولو ذكر الضَّمير لدلَّ علىٰ معنىً واحدٍ ، فاتسع المعنىٰ بالحذف .

ولا شكَّ أن هـٰذا المعنىٰ أوسع من ذكرِ الضَّمير وأمدح لهم .

فزاد علىٰ ما ذكره في الزمرِ بالتعدية إلىٰ المفعول المباشرِ ، وهو الاسم الظاهر ، وبالحذف للدلالة علىٰ الإطلاقِ واتساعِ المعنىٰ .

ثم إنه ذكر من الهداية ما لم يذكره في الآيتين .

فقد ذكر الهداية العامة ، وهو قوله : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ . . . ﴾ إلخ ، ولم يخصصِ الهدايةَ بأمرٍ معين .

ثم ذكر أنه هداهم إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ ، فقال : ﴿ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهـٰذه هدايةٌ أخرىٰ .

ثم أفاد بالحذف أنه هداهم ، وهدىٰ بهم .

هـٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ ، أنه أسند فعل الهداية مع رسل ٱلله مرةً إلىٰ ضمير التعظيمِ ، فقال : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ . . . ﴾ إلخ ، وقال : ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأسنده مرةً أخرىٰ إلىٰ اسمه الجليل وهو اسمه العَلَم ، فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ ﴾ .

في حين أسنده في الآيتين الأخريين إلىٰ اسمه العلم ، فزاد الإسناد مع الرسلِ علىٰ ما في الآيتين الأخريين .

هـٰذا علاوةً علىٰ ما ذكره من التعظيمِ لأنبيائه ، ما لم يذكره مع الآخرين من نحو قوله : ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٨٦] .

وقوله : ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فزاد الاجتباء علىٰ الهداية .

وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [٨٩] .

وقوله : ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [٩٠] .

فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعه .

وقد تقول : ألا يحتمل الحذف في آيةِ البقرةِ ، وهي قوله : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ ما ذكرته في قوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ ﴾ فيكون المعنىٰ : إلا علىٰ الذين هداهم ٱلله وهدىٰ بهم ، فيتسع المعنىٰ ، فيكون مَن ذكرهم في البقرةِ أعلىٰ ممن ذكرهم في الزمرِ ، نظير ما ذكرته في آية الأنعام ؟

والجوابُ : إن السِّياق يأبىٰ ذٰلك ، فإن هـٰذه الآيةَ في تحويلِ القبلةِ إلىٰ الكعبةِ ، بعد أن كانت إلىٰ بيت المقدس ، ويكفي في ذٰلك أن يتجه المسلم إلىٰ الكعبة في صلاته ، وأن يهديه ٱلله للرضا بذٰلك ، سواء كان

يهدي الآخرين أم لا ، وسواء كان عالماً أم لا .

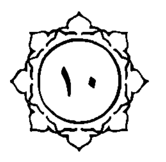
فمن رضي بذلك واتجه إلىٰ القبلة ، شملته الآية أيّاً كان ، فلا يصحُّ تقدير ما ذكرت .

وقد تقول : ولِمَ لَم يحذف الضَّمير في آية الزمر ، فيقول : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ ﴾ ليشمل الذين هداهم ٱلله وهدىٰ بهم ، فيكون أمدحَ لهـٰؤلاء ، كما فعل في آية الأنعام ؟

والجوابُ : إن ذكر الضَّميرِ ههنا من رحمةِ ٱلله بنا ، ولو حذفه لكانت البشرىٰ لا تنال إلا مَن هداه ٱلله وهدىٰ به ، فيكون ممن جمع بين الأمرين ، ولا تَنال مَن هداه ٱلله ولم يَهدِ به ، فذِكْرُ الضَّميرِ أفاد نصًّا أن البشرىٰ تنال مَن هداه ٱلله ، وأن ذٰلك كافٍ لأن تناله بشرىٰ ربِّنا .

وهـٰذا من رحمته سبحانه بعباده ، والحمد لله ربِّ العالمين .

* * *



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٥٩ ـ ١٦٠] .

وقال فيهم أيضاً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٦١ ـ ١٦٢] .

فقال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ بصيغة الفعل .

وقال في الآيةِ الثانيةِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ بالصيغة الاسمية ، فَلِمَ ذاك ؟

والجوابُ

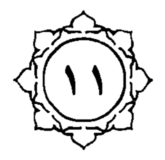
إن الآية الأولىٰ قيلت فيمن كان لا يزال في الحياة الدنيا ، فجاء بالفعل ، (يكتمون) مضارعاً ، وجاء بفعلِ اللعنةِ مضارعاً أيضاً ، فما

داموا يكتمون ما أنزل ٱلله تصيبهم اللعنة ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا ، فأولـٰئك يتوب ٱلله عليهم .

وهـٰذا هو المناسب لفعلهم ، فاللعنة تستمرُّ ما دام الكتمان مستمرّاً .

وأما الآية الثانية فنزلت في الذين ماتوا علىٰ الكفرِ ، وقد انقطعت أعمالهم وثبتوا علىٰ حالةٍ واحدةٍ ، لا يرجىٰ لهم تبديلٌ ولا تغييرٌ ، فجاء باللعنة بالصيغة الاسمية للدلالةِ علىٰ الثبوتِ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه الذي ورد فيه .

* * *



وقال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

وقال في سورةِ النحلِ : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل : ١١٤] .

سؤالٌ

لماذا قال في آية البقرة : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ فأمر بالشكرِ لله ، وقال في آيةِ النحلِ : ﴿ وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ فأمر بشكرِ النِّعمةِ ؟

الجوابُ

إن السِّياق الذي وردت فيه آيةُ البقرةِ ، إنما هو في الكلام علىٰ ٱلله ، والسياق الذي جاءت فيه آيةُ النحلِ في الكلام علىٰ النعمِ .

فقد قال تعالىٰ في سياقِ آيةِ البقرةِ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [١٦٥] .

وقال قبل الآيةِ : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا

دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [١٧١] .

فالكلام كما ترىٰ علىٰ ٱلله ، وعلىٰ ما يدعوه الكفار من الآلهة ، فناسب الأمرُ بشكر ٱلله .

وأما آية النحلِ فهي في سياق النعم ، فقد قال قبل الآية : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [١١٢] .

فذكر القرية التي كفرت بأنعم ٱلله ، فأذاقها ٱلله لباس الجوع والخوف ، فناسب الأمر بشكرِ النعمةِ ؛ لئلا يصيبهم ما أصاب مَن قبلهم .

هـٰذا إضافةٌ إلىٰ أن كلمة (النعمة) وردت في سورة النحل أكثر مما وردت في سورةِ البقرةِ ، فقد وردت في سورة البقرةِ ستَّ مراتٍ ، ووردت في النحل تسع مراتٍ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه من جهةٍ أخرىٰ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

سؤالٌ

١ - لماذا قال : ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ ولم يقل : (وعلىٰ الوالدِ) ؟

٢ - ولماذا قال : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾ بالجمعِ ، وقال : ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ بالإفراد ؟

٣ - ولماذا قال : ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾ ولم يقل : (وعلىٰ الوالدات أن يرضعن) كما قال في الوالد ؟

الجوابُ

١ - بالنسبةِ إلىٰ السُّؤالِ الأول فإنه قال : ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ دون الوالد « للدَّلالة علىٰ أن الأولاد للآباء لا للأمهات ، ولهـٰذا يُنسبون إليهم دونهن كأنهن إنما ولدن لهم فقط »[1] .

٢ - وأما بالنسبة إلىٰ السؤالِ الثاني ، فإنه عبر بـ : (الْوَالِدَاتُ)

---

(١) فتح القدير (١ / ٢٤٥) .

علىٰ صيغة الجمع دون المولود له ؛ للكثرةِ النسبية ، فإن الوالدات أكثر من الآباء ؛ لأن الأب قد تكون له أكثر من زوجة ، وكلهن يلدن والوالد واحد .

٣ - وأما بالنسبة إلىٰ السؤالِ الثالثِ ، فإنه قال : ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾ ولم يقل : (وعلىٰ الوالدات أن يرضعن) لأن الزوج مكلفٌ بالرزقِ والكسوة للزوجاتِ ، أما الزوجة فلا يجب عليها أن ترضع أولادها ، وهي غير مكلفةٍ بذٰلك ، بل لها أن تمتنع عن إرضاع ولدها ، فيبحث له والده عن مُرضعةٍ ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق : ٦] .

ولهٰذا لم يقل : (وعلىٰ الوالدات أن يرضعن) كما لم يقل : (والوالدات ليرضعن) بلام الأمر ، وإنما قال : ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة البقرة : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨ ـ ٢٣٩] .

سؤالٌ

لماذا وسّط ربُّنا هٰذه الآية بين أحداثِ الطلاقِ والوفاةِ ، فإن قبلها : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [٢٣٦ ـ ٢٣٧] .

وبعدها : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا . . . ﴾ [٢٤٠] ؟

الجوابُ

١ ـ إن المشكلاتِ بين الزَّوجين قد تؤدي إلىٰ أن يحيف أحدهما علىٰ الآخر ، وينتصر لنفسه ، فيظلم الآخر .

وإن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ، كما قال ربنا[١] ، فأمرهم بذٰلك ؛ ليرتدعوا ، ولئلا يبغي بعضهم علىٰ بعض .

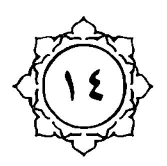
٢ ـ ثم إنه أمرهم بالمحافظة علىٰ الصلاة ؛ لئلا تشغلهم المشكلات العائلية عنها ، فيتركوها أو يتهاونوا في أدائها .

وقد أمرهم بالمحافظةِ عليها في الوقت الذي هو أشدُّ من ذلكَ ، وذٰلك عند الخوفِ ، فقال : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ، فكيف فيما هو دون ذلكَ ؟

وهٰذا يدل علىٰ عِظم هٰذهِ الفريضةِ ، وأنه ينبغي ألا يشغلهم عنها شاغل مهما عظم .

* * *

(١) العنكبوت الآية (٤٥) .



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ ولم يقل : (ومن لم يشربه) ، مع أن الكلام علىٰ الماء ؟

الجوابُ

يقال : (طعم) إذا أكل أو ذاق ، والطَّعم الذوق ، وهو يكون في الطعام والشَّراب .

يقال : طعمه مر أو حلو أو غير ذٰلك ، ويكون ذٰلك في كل شيءٍ مما يؤكل أو يُشرب[١] .

ثم إن « الماء قد يُطعم إذا كان مع شيءٍ يمضغُ .

---

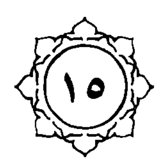
(١) انظر : لسان العرب (طعم) .

ولو قال : (ومن لم يشربه) لكان يقتضي أن يجوز تناوله إذا كان في طعام .

فلما قال : ﴿ وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ ﴾ تبين أنه لا يجوز تناوله علىٰ كلِّ حالٍ إلا قدر المستثنىٰ وهو الغرفة باليد »[١] .

* * *

(١) المفردات (طعم) .



قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ علىٰ لسان زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حين بشرته الملائكة بيحيىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٤٠] .

وقال علىٰ لسان مريم ، حين بشرتها الملائكة بالمسيح : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٧] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا قال زكريّا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ .

وقالت مريمُ : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ .

فذكر زكريّا الغلامَ ، وذكرت مريم الولدَ ؟

٢ ـ لماذا قال ٱلله مخاطباً زكريّا : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ .

وقال مخاطباً مريمَ : ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾ .

فاستعمل (الفعل) مع زكريّا ، و(الخلق) مع مريم ؟

الجوابُ

١ ـ أما بالنِّسبة إلىٰ استعمال الغلامِ مع زكريّا فهو المناسب ؛ لأن ٱلله بشره بيحيىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [٣٩] . ويحيىٰ غلام .

أما بالنِّسبة إلىٰ استعمالِ الولدِ مع مريم ، فهو المناسب أيضاً ؛ ذٰلك أن ٱلله بشرها بكلمة منه اسمه المسيح ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [٤٥] .

والكلمة أعم من الغلام فهي تصحُّ لكل ما أراد ٱلله أن يكون ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يسٓ : ٨٢] ، والولد أعمُّ من الغلامِ ، فالولد يُقال للذكر والأنثىٰ ، والمفرد والجمع ، قال تعالىٰ : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ [الكهف : ٣٩ ـ ٤٠] .

فلما بشَّرها بالكلمة وهي عامة ، سألت بما هو أعمُّ من الغلام وهو الولد ، فناسب العمومُ العمومَ والخصوصُ الخصوصَ .

ألا ترىٰ في سورةِ مريمَ ، حين بشرها رسول ربها بالغلام قائلاً : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم : ١٩] .

قالت : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم : ٢٠] ، فناسبَ كل تعبيرٍ مكانه .

٢ ـ وأما قوله مخاطباً زكريّا : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ ،

وقوله مخاطباً مريم : ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ فهو المناسب أيضاً .

ذٰلك أن الفعلَ أيسر من الخلقِ ، فالفعلُ عامٌّ ، ألا ترىٰ أنه قد يقول لك قائل : لِمَ فعلت كذا ؟ ولم تفعل كذا ؟ فتقول : أنا أفعل ما أشاء .

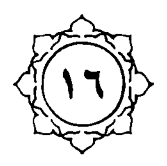
ولا يصحُّ أن تقول : (أنا أخلق ما أشاء) فإنك لا تستطيعُ ذٰلك .

هٰذا وإن إيجاد الذريّةِ من أبوين مهما كان شأنهما ، أيسر من إيجادها من أمٍّ بلا أب .

فناسب ذكرُ الفعلِ الذي هو أيسرُ من الخلقِ مع زكريا .

وناسب ذكرُ الخلقِ مع مريمَ التي لم يمسسها بشرٌ .

* * *



قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٦ ـ ٥٧] .

سؤالٌ

لماذا قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ ﴾ بإسنادِ التعذيبِ إلىٰ ضميرِ المتكلِّم ، وقال في الآية الثانية : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ بإسنادِ توفيةِ الأجورِ إلىٰ الغائبِ ولم يقلْ : (فأوفيهم أجورهم) فيكونُ الكلامُ علىٰ نسقٍ واحدٍ ؟

الجوابُ

إن الآيةَ الأولىٰ في سياق كلام ٱلله سبحانه عن نفسه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [٥٥ ـ ٥٦] .

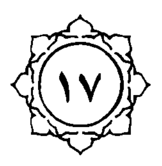
فناسب إسنادُ التعذيبِ إلىٰ نفسه ، جرياً مع سياقِ الحديثِ عن النفسِ .

وأما الآية الثانية ، فهي في مقامِ الالتفاتِ إلىٰ الغائب ؛ وذٰلك ليكون مدخلاً إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإنه لو لم يلتفت لقال : (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأوفيهم أجورهم وأنا لا أحب الظالمين) .

ولم يرد فعل الحبِّ من ٱلله في القرآن ؛ إثباتاً أو نفياً مسنداً إلىٰ ضميرِ المتكلِّمِ ، أي إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لم يقل في جميع القرآن مخبراً عن نفسه بنحو : (وأنا لا أحب الظالمين أو المعتدين) أو : (وأنا أحب الصابرين أو المحسنين) بل يسند ذٰلك إلىٰ لفظِ الجلالةِ في الأغلبِ ، أو إلىٰ ضميره كأن يقول : (إنه لا يحب المسرفين) أو : (إنه لا يحب المعتدين) .

فالمناسبُ هو الالتفاتُ ، وليس الاستمرارُ بالحديثِ عن النفسِ .

* * *



قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وقال في سورةِ هودٍ : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ﴾ [هود : ٥٤ ـ ٥٥] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ آلِ عمرانَ : ﴿ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ فجاء بالباء مع (أنا) ولم يذكرها في قولِهِ : ﴿ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ ﴾ فلم يقلْ : (بأني بريء) مع أن الفعلَ فيهما واحدٌ ، وهو قوله : (اشهدوا) ؟

الجوابُ

إن الباءَ مُقدرةٌ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ ﴾ والمصدر المؤول منصوب علىٰ نزعِ الخافضِ ؛ لأن (شهد) بهـٰذا المعنىٰ يتعدَّىٰ بالباء ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزخرف : ٨٦] ، وقوله : ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ [يوسف : ٨١] .

ومعلومٌ أن الذكر أقوىٰ وآكدُ من الحذفِ ، فقوله : ﴿ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ﴾ أقوىٰ وآكد من قوله : ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

وسياقُ كلٍّ من الآيتين يوضح ذٰلك .

قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤] .

وقال في سورةِ هودٍ : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [٥٤ ـ ٥٥] .

ومن النَّظرِ في كلٍّ من الموضعين ، يتضح أن ما ذكره رسول ٱلله في آل عمرانَ ، أكثرُ مما قاله نبيُّ ٱلله هودٌ في سورةِ هودٍ .

فقد قال في آلِ عمرانَ :

١ ـ ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ .

٢ ـ ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ .

٣ ـ ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ .

وأما في هودٍ فقد ذكر البراءة من الشرك فقط فقال : ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾ ، وهو واحدٌ مما جاء في آلِ عمرانَ .

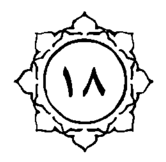
ثم لو نظرنا فيما جاء عن الشِّركِ في كلٍّ من الموضعين ، لوجدنا أن ما في آل عمرانَ أقوىٰ وأعم ، فقد قال فيها : ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي : أيُّ شيءٍ كان ، وهٰذا التعبير يحتمل معنيين : لا نشرك به شيئاً من

الشِّركِ ، ولا نشرك به شيئاً من الأشياءِ .

في حين قال في هود : ﴿ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ﴾ فإنه ذكر البراءة مما يشرك قومه . فكان ما في آلِ عمرانَ أعم وأشمل ؛ لأنه نفىٰ كل أنواعِ الشِّركِ ويدخل فيه ما ذكره في هودٍ .

فكان ما في آلِ عمرانَ أقوىٰ وآكد وأعم ، فناسبَ ذكر الباءِ فيه ، ولما كان ما في هود جزءاً مما ذكر في آلِ عمرانَ ناسب الحذف ، والحذف في نحو هـٰذا قياس كما هو معلومٌ .

* * *



قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

سؤالٌ

من المعلومِ أن الحجَّ عبادة مأمور بها المسلمون ، وهي ركنٌ من أركان الإسلام ، فلماذا قال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ فقال : ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ، والناس فيهم الكافرُ والمسلمُ ، ولم يقل : (علىٰ المسلمين) أو (علىٰ المؤمنين) كما قال تعالىٰ في الصِّيامِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، وكما قال في الصَّلاةِ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣] فذكر المؤمنين ؟

الجوابُ

١ ـ قال تعالىٰ قبل هـٰذه الآية : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] ، فذكر أن هـٰذا البيت إنما وضع للناسِ ، فناسب أن يدعو الناس إلىٰ حجِّه .

وقال : ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ فذكر العالمينَ ، فناسب ذٰلك أيضاً أن يدعو العالمين إلىٰ حجه .

وقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فذكر العالمين أيضاً ، فناسب ذٰلك من جهة أخرىٰ أن يدعو العالمين إلىٰ حجه .

٢ - إن هٰذه الفريضة تختلف عن بقيةِ الفرائضِ ، من صلاة وصيام وزكاة ، فإن هٰذه الفرائضَ مأمورٌ بها الأنبياء السابقون وأتباعهم .

فقد قال في الصِّيام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ .

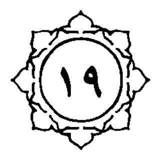
فذكر أن الصِّيام كتب علينا كما كتب علىٰ الذين من قبلنا ، فلو قال : (لله علىٰ الناس أن يصوموا) لقال أصحابُ الدِّياناتِ الأخرىٰ أو كثيرٌ منهم : نحن نصوم ، فنحن قائمون بما أمر ٱلله به .

ولو قال : (ولله علىٰ الناس إقامة الصلاة) لقال كثيرٌ من أهلِ المللِ من أهل الكتابِ وغيرهم : نحن نقيمُ الصلاةِ ، فإن الصلاةَ عبادةٌ مأمورٌ بها الأنبياء وأتباعهم .

قال تعالىٰ في سيدنا موسىٰ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [يونس : ٨٧] .

وقال علىٰ لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ آلِ عمرانَ : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٦ ـ ١٠٧] .

سؤالٌ

لماذا قدّم أولاً من تبيضُّ وجوههم علىٰ من تَسودُّ ، فقال : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ، ثم قدَّم بعده من تسودُّ وجوههم علىٰ من تبيضُّ ، فقال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وقال بعده : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ .

وكان المظنون أن يكون التَّفصيل علىٰ نسقِ ما بدأ ، فيقول أولاً : (فأما الذين ابيضت وجوههم) ويقول بعده : (وأما الذين اسودت وجوههم) نظيرَ قولِه تعالىٰ في سورةِ هودٍ : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ . . . ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [١٠٥ ـ ١٠٨] .

فإنه لما قال : ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ فقدَّم الشَّقي ، كان التفصيل علىٰ نسق ذٰلك ، فقال : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ فقدَّم الذين شَقوا علىٰ الذين سُعدوا ، فما الفرق ؟

الجوابُ

إن التَّقديم والتَّأخير في آلِ عمرانَ جرىٰ بحسب القربِ والبعدِ ، فمَن كان قريباً قدم القول فيه ، ومَن كان بعيداً أخَّر القولَ فيه .

وإيضاح ذٰلك أن الكلامَ كان علىٰ صنفين من النَّاسِ ، أحدِهما مُخاطبٍ والآخرِ غائبٍ ، ولا شكَّ أن المخاطب أقرب من الغائبِ ، فقدَّم ما يتعلَّق بالمخاطبِ وأخَّر ما يتعلَّق بالغائبِ .

وبيان ذٰلك أن السِّياق في آلِ عمرانَ إنما هو في خطابِ المؤمنين ، فقد خاطبهم بقوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [١٠٠] ، ويستمرُّ الكلام في خطابهم ، فيقول : ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ . . . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ . . . وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ . . . وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ . . .﴾ [١٠١ ـ ١٠٦] ، فالمؤمنون هم المُخَاطَبون وهم الذين تَبيض وجوههم .

والذين تفرَّقوا واختلفوا هم الذين تسودّ وجوههم ، وهم في السياق

غائبون ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله : ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فأخبر عنهم بضمير الغيبة ؟

فقدَّم القول في المخاطبين كما ذكرنا ، فقال : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ .

وأما الكلام بعد ذٰلك ، فإن الذين اسودَّت وجوههم ، هم المخاطبون فيه ، وأما الذين ابيضَّت وجوههم فهم غائبون .

فقد قال : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

فقد خاطبهم بقوله : ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ ، ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

وأما الذين ابيضَّت وجوههم فهم هنا غائبون ، فقد قال فيهم : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ .

فأخبر عنهم بضمير الغيبة .

فقدَّم القولَ في المُخاطبين كما فعل أولاً ، فجرىٰ الكلامُ علىٰ نسقٍ واحدٍ في التقديمِ والتأخيرِ .

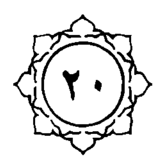
وأما التقديمُ والتأخيرُ في سورةِ هودٍ فقد جرىٰ علىٰ نهجٍ واضحٍ أيضاً ، فإن السِّياق فيها في ذكرِ الأممِ الكافرةِ الذين عصوا رسلهم ، وأنزل بهم العقوبات ، ثم عقّب بعد ذٰلك بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ

أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [١٠٠ ـ ١٠١] ، فالسِّياق في الأشقياءِ من الناسِ فقدَّم الأشقياءَ ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

وأما التفصيل فيما بعد ، فقد جرىٰ علىٰ نسق ما ذكر ؛ لأنهم كلهم غائبون فهم بمنزلةٍ واحدةٍ ، فقد قال : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ .

وقال بعدها : ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ بخلاف ما عليه السياق في آل عمران ؛ فإن منهم مخاطباً ومنهم غائب ، فجرىٰ التفصيل في هود علىٰ ما أجمل ، فلما قال : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ فقدَّم الأشقياء ، فصّل الكلام علىٰ نسق ذٰلك ، فقال : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ﴾ ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ ﴾ فكان كلُّ تعبيرٍ مناسباً في سياقه الذي ورد فيه .

* * *



قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٦٧] .

وقال في سورةِ الفتحِ : ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح : ١١] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ آلِ عمرانَ : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ ، وقال في الفتحِ : ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ ؟

الجوابُ

إن الأفواه أعمُّ وأشملُ من الألسنةِ ، فإن اللسانَ جزءٌ من الفمِ ، والمناسب أنه إذا كان القولُ كبيراً عظيماً ذُكرتِ الأفواه ، وإذا كان أقل ذُكرت الألسنةُ مناسبةً لكلِّ حالةٍ .

وعلىٰ هـٰذا فقوله : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ يدل علىٰ أن القولَ أعظمُ وأكبرُ ، والأمر كذٰلك .

فإن السِّياق في آلِ عمرانَ إنما هو في المتخلفين عن القتال في

أُحد ، فقد دُعوا إلىٰ القتال ، أو الدفع عن المدينة ، فامتنعوا قائلين : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [١٦٧ ـ ١٦٨] .

ومما قيل في معنىٰ قوله : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ إننا لا نُحسن القتال ، ولو كُنا نحسن القتال لاتبعناكم .

وأما المذكورون في سورةِ الفتحِ ، فهم المتخلِّفون عن عُمرة الحُديبية ، فهم لم يذهبوا إلىٰ العُمرة مع الرسولِ ﷺ مُعتلِّين بالشُّغل ، قال تعالىٰ : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [١١] .

ومن النظر في السِّياقين يتبين ما يأتي :

١ ـ إن الموقف في آيةِ آلِ عمرانَ إنما هو في قتال المشركين ؛ الذين جاؤوا إلىٰ المدينة .

وأما الموقف في آيـة الفتـحِ فهو في الذهاب إلىٰ العمرةِ ، وليس إلىٰ قتالٍ ، فالموقف في أُحُدٍ أشدُّ والخطر أظهر .

٢ ـ إن القول في آيات آلِ عمرانَ أعظم وأكبر مما في الفتح ، فإنهم قالوا : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ فهم كانوا مُصرين علىٰ عدمِ المشاركةِ

في القتالِ ، راضين بقعودهم ، ولم يكتفوا بذٰلك بل كانوا يخذِّلون غيرهم ، ويُزينون لهم القعود ، فقد قال عنهم سبحانه إنهم قالوا لإخوانهم : ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾ ، فهم لم يندموا ، بل كانوا يرون ذٰلك من بُعد النظرِ .

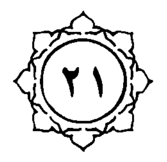
وأما المُخلَّفون الذين ذُكروا في سورةِ الفتحِ ، فإنهم قالوا : ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ .

فاعتذروا عن عدمِ الذَّهابِ إلىٰ العُمرة بالشُّغلِ ، وأنهم طلبوا الاستغفارَ من الرسول ﷺ ، فهم أظهروا للرسول ﷺ أنهم مُقصِّرون وأنهم مذنبون فطلبوا الاستغفار ، وأنه كان لهم عذر .

ولم يُظهِر الأولون ذٰلك ، بل كانوا راضين بما فعلوا مُخذِّلين لغيرهم ، غير نادمين ولا طالبين لمغفرةٍ .

فقول أصحاب أُحد أكبر وأعظم ، وموقفهم أخطر وأكبر ، فناسب أن يُذكر فيهم ما هو أكبر وهو الأفواه ، وناسب ذكر الألسنةِ في آيةِ الفتحِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٦ ـ ٢٨] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا رتَّب الآية السادسة والعشرين علىٰ هٰذا النَّحوِ ، أي قدَّم البيان ، ثم الهداية ، ثم التوبة ؟

٢ ـ لماذا قدّم لفظ الجلالة علىٰ الفعل (يريد) في الآيةِ السابعةِ والعشرين ؟

٣ ـ لماذا عدَّىٰ فعلَ الإرادةِ باللاَّمِ في الآيةِ السادسةِ والعشرين ، وعدّاه بنفسه في الآية التي بعدها ؟

الجوابُ

١ ـ بالنسبة إلىٰ التَّقديم والتأخير في الآية الأولىٰ ، فإن هٰذا هو الترتيب الطبيعي ، فإنه قدَّم البيان علىٰ هداية السُّنن ؛ لأن البيان مقدَّمٌ

علىٰ الهدايةِ ، فالهداية تكون بعد البيان ، وإلا فإلىٰ أي شيءٍ يهديه ؟

وأما التوبةُ فهي بعد البيانِ والهدايةِ ، فإنها تكون بعد التقصيرِ في الاتباعِ ، وارتكاب الذنوب والمعاصي .

٢ ـ قُدِّم لفظُ الجلالةِ علىٰ الفعل (يريد) في الآيةِ السابعةِ والعشرين لأكثر من سببٍ .

منها : أنها بمقابل ما يُريده الذين يتبعون الشَّهواتِ .

ومنها : أن هـٰذا التقديم يُفيد الاهتمامَ والتوكيدَ ، والمبالغةَ في إرادة التوبة من ٱلله[1] .

ومن جهةٍ أخرىٰ أن هـٰذا التقديمَ يُفيد الحصر ، إضافة إلىٰ ما تقدَّم ، فإن التوبة مُختصة بٱلله حصراً ، فلا يتوب غيره علىٰ العبدِ ، ولا يمكنه ذٰلك .

قد تقول : ولِمَ كان هـٰذا الموضع موضع تأكيدٍ ومبالغةٍ ؟

فنقول : إن ذٰلك لأكثرِ من سببٍ :

منها : أن التوبة من ٱلله أهم شيءٍ بالنسبة إلىٰ العبد ، ولا يقوم شيءٌ مقامها ، فإنه إذا لم يتب ٱلله علىٰ العبد هلك .

ثم إن السِّياق يدل علىٰ ذٰلك ، فقد كرَّر إرادةَ التوبةِ ، فقال : ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي (١٠٩) ، روح المعاني (٥ / ١٢) .

وقال إضافةً إلىٰ ذٰلك : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ ﴾ والتوبةُ من ٱلله تخفيفٌ عن العبدِ .

ومما يدلُّ علىٰ ذٰلك أيضاً أنه قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ بمقابلِ ما ذكره من إرادة الفجّارِ ، فقد قال : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ .

وكان المظنونُ بمقابلِ ذٰلك أن يقول : (وٱلله يريد أن تستقيموا) مثلاً أو أن تطيعوه ، فإن الاستقامةَ تُقابل الميلَ ، ولـٰكنه لم يقلْ ذٰلك ، وإنما قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ فذكر ما هو أخفُّ ، ولا شكَّ أن ذكر هـٰذه الإرادةِ بمقابلِ ما يريده الذين يتبعون الشّهواتِ رحمةٌ وتخفيفٌ .

ثـم ذكـر أن الإنسـان خُلـق ضعيفـاً ، والضَّعيـف بـه حـاجـةٌ إلـىٰ التخفيفِ ، والتوبةُ من التخفيفِ .

ثم إن السياقَ قبل هـٰذه الآياتِ في ذكرِ التوبةِ ، فقد قال : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ ﴾ [١٦ ـ ١٨] .

فاتَّضحَ أن سياقَ الآياتِ وما قبلها إنما هو في التوبةِ ، فاقتضىٰ ذٰلك الاهتمامَ والمبالغةَ في إرادة التوبة .

واقتضىٰ تقديم لفظِ الجلالةِ من كلِّ وجهٍ .

قد تقول : لقد اتضح سبب تقديمِ لفظِ الجلالةِ في قوله : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فلِمَ لم يُقدم الذين يتبعون الشهوات ، فيقول : (والذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً) حتىٰ يكون التعبيران علىٰ نسقٍ واحدٍ ؟

فنقول : إن الذين يتبعون الشهوات ليسوا وحدهم الذين يريدون للمسلمين أن يميلوا ميلاً عظيماً ، بل هناك غيرهم ممن يريد ذٰلك من المنافقين ، وأهل الكتاب والمشركين ، وغيرهم ممن يأكلُ قلبه الحسدُ والحقدُ ، أو لغير ذٰلك ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة : ١٠٩] . وقال : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة : ٨٢] . وقال : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة : ٦٨] .

وقال في المنافقين : ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء : ٨٨ ـ ٨٩] .

فذكر أن الذين يتبعون الشَّهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً ، ولم يَقصر ذٰلك عليهم فلا يُناسب التقديم .

٣ ـ وأما تعدية فعل الإرادةِ باللاَّم مرة ، وبنفسه مرة أخرىٰ ، فإن التَّعدية باللام تحتمل أمرين :

الأول : أن تكون اللام مزيدةً للتوكيد ، وهٰذا كثيرٌ في أفعال الإرادةِ ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ، وقوله : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [الصف : ٨] ، والآخر : أن تكون اللام للتعليلِ[١] ؛ أي إرادته لهٰذا الغرضِ .

وكلاهما يدلُّ علىٰ المبالغةِ والقوة ، وهو آكدُ وأقوىٰ من التعدية بنفسه[٢] ، فالتعبير (يريد ٱلله ليتوب عليكم) آكد من : (يريد ٱلله أن يتوب عليكم) .

وقد ذكر ٱلله الأمرين فإن قوله : ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ في الآية الأولىٰ أي في قوله : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ . . . وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ معطوفٌ علىٰ إرادةِ اللامِ .

وفي الثانية مفعولٌ به للفعلِ (يريد) .

فتكون إرادة ٱلله للتوبةِ مطلوبةً مؤكدةً علىٰ كل حالٍ ، وهٰذا يدل علىٰ عظيمِ رحمةِ ٱلله بخلقه .

ولما كانت الآية الأولىٰ ذكرت أموراً في غاية الأهميةِ ، منها البيان لما يريده ٱلله ، وهداية الخلق لما يريد ، ومنها التوبة ، جاء بفعلِ الإرادةِ معدّىً باللامِ .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي (١٠٩) .

(٢) انظر : كتابنا (معاني النحو) (٣ / ٦٧) وما بعدها .

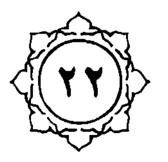
ولما كانت الآية التي تليها مندرجةً في مطلوبِ الآيةِ السابقةِ ، وهي إرادةُ التوبةِ ، وليس فيها ما في الآية التي قبلها لم تحتجْ إلىٰ اللاَّمِ .

وقد تقول : ولِمَ لَم يقدَّم لفظ الجلالةِ في الآية الأولىٰ فيقول : (ٱلله يريد ليبين لكم) ؟

فنقول : إن هـٰذا المواطنَ لا يقتضي التَّقديم ؛ لأنه لم يذكر أن جهةً أخرىٰ تُريد غير ذٰلك ، ولا هو موطنُ تعريضٍ بجهةٍ أخرىٰ تريد غير هـٰذا الأمر ، وإنما هو إخبارٌ عن إرادةِ ٱلله لذٰلك ، بخلاف الآية التي تليها ، فإنه ذكر جهة أخرىٰ تريد غير ما يريده ٱلله للمؤمنين .

فلا يناسبُ التَّقديمَ في الآيةِ الأولىٰ ، وٱلله أعلم .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ النِّساءِ: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٩٢] .

وقال في سورةِ التَّوبةِ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة : ١٠٤] .

وقال في سورةِ الشُّورىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورىٰ : ٢٥] .

سؤالٌ

لماذا جاء مع التوبةِ بـ : (من) في آيةِ النِّساءِ ، وجاء معها بـ : (عن) في آيتي التوبة والشُّورىٰ ؟

الجوابُ

لقد ذكر (من) مع التوبة ليُبيِّنَ الجهةَ التي تقبل التوبة ، وهو (الله) .

وذكر معها (عن) ليُبيِّن طالبَ التَّوبةِ وهمُ العبادُ .

فقوله : ﴿ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يعني أن التَّوبة قَبِلَها ٱلله ، وهو يتوب علىٰ مَن يفعل ذٰلك .

وقوله : ﴿ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ يعني أنه يقبل التوبة التي تصدر عن عباده طالبين لها .

وقيل : إن معناه أنه يتجاوز عنهم ، ويعفو عن ذنوبهم التي تابوا منها ، جاء في « روح المعاني » : « وتعدية القَبول بـ : (عن) لتضمُّنه معنىٰ التَّجاوز والعفو أي : يقبل ذٰلك متجاوزاً عن ذنوبهم التي تابوا عنها »[١] .

* * *

(١) روح المعاني : (١١ / ١٥) .



قال تعالىٰ في سورةِ النساءِ : ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٢] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بنصب ﴿ ٱلْمُقِيمِينَ ﴾ مع أنه معطوفٌ علىٰ ﴿ ٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ وهو مرفوع ؟

الجوابُ

إن هٰذا مما يسمىٰ في علمِ النَّحوِ بالقطع ، وهو يكثر في المدح والذم والترحم ، ويكون ذٰلك لأهميةِ المعطوفِ(١) .

والقطع هنا للمدحِ ، وهو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديره (أمدح) أو (أخص) .

وحسَّن القطع أنه ذكر عبادتين ظاهرتين وهما : إقامةُ الصلاةِ وإيتاءُ

(١) انظر : (معاني النحو) (٣ / ١٨٧) وما بعدها .

الزكاةِ ، والصلاة أهم من إيتاء الزكاة ؛ لأنها فرض عين علىٰ كل مكلَّفٍ سواء كان غنيًّا أم فقيراً ، صحيحاً أم سقيماً ، وهي أهمُّ ركنٍ في الإسلامِ ، ولا تسقط في حالٍ من الأحوال ، ولذا قطعها للدلالة علىٰ فضلها علىٰ الزكاةِ ، أما الصِّفات الأخرىٰ فهي أمورٌ باطنةٌ وقلبيةٌ .

ونظير ذٰلك قوله تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

فقطع الصابرين لفضلهم ، وذٰلك أنهم صابرون في الفقر ، وفي المرض ، وفي القتال ، والبأساء هي البؤس والفقر ، والضَّراء السقم والوجع ، وحين البأس ؛ أي وقت القتالِ وجهاد العدو(١) .

جاء في (البحر المحيط) : « انتصب (والصابرين) علىٰ المدح .

ولما كان الصَّبر مبدأ الفضائل ـ ومن وجهٍ ـ جامعاً للفضائل ؛ إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثرٌ بليغٌ ، غيّر إعرابه ؛ تنبيهاً علىٰ هٰذا المقصد »(٢) .

(١) انظر : روح المعاني (٢ / ٤٨) ، البحر المحيط (٢ / ٧) .
(٢) البحر المحيط (٢ / ٧) .

وجاء في (روح المعاني) : « ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ نصب علىٰ المدح بتقدير : أخصُّ أو أمدحُ .

وغيَّر سبكه عمّا قبله ؛ تنبيهاً علىٰ فضيلة الصبرِ ومزيته علىٰ سائر الأعمال ، حتىٰ كأنه ليس من جنسِ الأوَّلِ »[١] .

* * *

---

(١) روح المعاني (٢ / ٤٧) .



قال تعالىٰ في سورةِ النِّساءِ: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٤] .

سؤالٌ

لماذا خصّ داود بقوله : ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ ؟

والجوابُ

إن أهل الكتابِ سألوا سيدنا محمداً ﷺ أن يُنزل عليهم كتاباً من السَّماء ، قال تعالىٰ : ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [النساء : ١٥٣] .

فأجابهم ربُّ العزةِ أن محمداً ﷺ أوتي مثلما أوتي رسل اللهِ الذين تؤمنون بهم ، وتُقرون بنبوتهم ، فقال : ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ

﴿إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ومَن ذكرهم من الأنبياءِ الآخرين .

وآتيناه كما آتينا داود زبوراً ، وقد نَـزَلَ الكتابُ علىٰ داود منجماً[١] ، وكذٰلك نزل علىٰ محمدٍ ﷺ .

فإن مَن ذكرهم من الأنبياء الذين سبق ذكرهم ذكر داود ، اشتركوا في الوحي ، ولم يؤتهم كلهم كتباً ، فإن قسماً منهم لم ينزل عليهم كتباً ، فاشترك معهم محمدٌ ﷺ في الوحي ، وأوتي كتاباً كما أوتي داود الذي تؤمنون به ، وأرسله كما أرسل رسلاً آخرين قصَّهم عليه ، وآخرين لم يقصصهم عليه .

وقد تقول : ولِمَ قال : ﴿وَرُسُلًا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلًا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾ ؟

والجوابُ : إن قسماً ممن ذكرهم في صدرِ الأنبياءِ أنبياء ، وليسوا رسلاً مثل إسحاقَ ويعقوبَ ، فقد أوتي محمدٌ ﷺ مثلما أوتي أنبياء ٱلله ورسله جميعاً .

١ ـ فقد أوحي إليه كالنبيين .

٢ ـ وأوتي كما أوتي داود .

٣ ـ وأُرسل كما أُرسل رسلُ اللهِ ممن قصهم عليه ، ومَن لم يقصصهم عليه .

---

(١) انظر : روح المعاني (٦ / ٢٦) .

٤ ـ ذكر سبحانه أن ٱلله كلَّم موسىٰ تكليماً ، وهـٰذه خصوصيةٌ لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وأوتي محمدٌ ﷺ ما هو أعظم من ذٰلك ، فإن موسىٰ كلَّمه اللهُ علىٰ الطُّورِ ، وأما محمدٌ ﷺ فقد عرج به إلىٰ السمـٰوات العلا ، إلىٰ سدرة المنتهىٰ عندها جنة المأوىٰ .

ثم إن موسىٰ خرَّ صعقاً .

وأما محمدٌ ﷺ فقد قال ربه فيه : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] ، فأحرىٰ بكم أن تؤمنوا به ، وقد أوتي مثلما أوتي رُسل ٱلله .

جاء في (روح المعاني) في تحقيق المماثلة بين شأنه ﷺ « وبين شؤون مَن يعترفون بنبوتهِ من الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في مطلق الإيحاء ، ثم في إيتاء الكتاب ، ثم في الإرسالِ ، فإن قوله سبحانه : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ منتظمٌ لمعنىٰ (آتيناك) و(أرسلناك) فكأنه قيل : إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلىٰ فلانٍ وفلانٍ ، وآتيناك مثلما آتينا فلاناً ، وأرسلناك مثلما أرسلنا الرسل الذين قصصناهم وغيرهم ، ولا تفاوت بينك وبينهم في حقيقةِ الإيحاءِ والإرسالِ ، فما للكفرةِ يسألونك شيئاً لم يُعطه أحدٌ من هـٰؤلاء الرُّسلِ عليهم الصَّلاة والسلام »[1] .

* * *

(١) روح المعاني : (٦ / ٢٦) .



قال تعالىٰ في سورة المائدة : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴾ [المائدة : ٢] .

وقال في السورة نفسها أيضاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] .

فقال في الآية الأولىٰ : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ ... أَن تَعْتَدُوا ﴾ ، والتقدير : (علىٰ أن تعتدوا) فحذف (علىٰ) ، وقال في الآية الثانية : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ فذكر (علىٰ) فما السبب ؟

الجوابُ

إن الذِّكر يفيد التَّوكيد فذكر (علىٰ) في الآية الثانية ؛ لأنها آكد ، ذٰلك أن الآية الأولىٰ في حالةٍ وقعت ومضت وهي حالة عارضة ، وذٰلك في قوم صدُّوهم عن المسجدِ الحرامِ ، وهي في أهلِ مكة وذٰلك عام الحديبيةِ .

أما الآيةُ الثانيةُ فهي نهي عن حالةٍ مستديمةٍ إلىٰ يوم القيامةِ ، وهي النَّهي عن عدمِ العدلِ .

ثم إنَّ الاعتداءَ يدخل في عدمِ العدلِ ؛ لأنه اعتداء فدخلت الآية الأولىٰ في الثانية .

فالثانية آكد وأعم وأشمل ، فجاء فيها بـ : (علىٰ) وحذفها من الأخرىٰ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة : ٦] .

سؤالٌ

هل يصحّ في اللغةِ عطف الأرجل علىٰ الوجوه في الغسل ، مع أنه قد فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بأجنبيٍّ عن الغسلِ ، وهو المسح بالرؤوسِ ؟ ثم لماذا فعل ذاك ؟

الجوابُ

لا شكَّ في صحةِ هـٰذا العطف في اللغةِ ، وهو كثيرٌ في القرآن وغيره ، قال تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم : ١٧ ـ ١٨] .

فقد عطف : ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ علىٰ : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ وبينهما متعاطفاتٌ ، فقوله : ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ معطوفٌ علىٰ قوله : ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ ، و﴿ وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوفةٌ علىٰ ﴿ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ .

ونحو ذلك آية الكرسي ، فإن قوله : ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ ﴾ معطوفٌ علىٰ قوله في أول الآية : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوْمٞۚ ﴾ وبينهما متعاطفاتٌ مختلفةٌ وهي : ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ ﴾ ، وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ ﴾ ، ونحو ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، فعطف : ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ علىٰ ﴿ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ﴾ أي (ومن أقام الصلاة) علىٰ ما بينهما من متعاطفاتٍ .

وقال تعالىٰ في سورةِ الجنِّ : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [١٦] فعطفَ هٰذهِ الآيةَ علىٰ قولِهِ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ وهي الآيةُ الأولىٰ .

فعطف الآية السادسة عشرة علىٰ الآية الأولىٰ .

وفي سورة الأعراف عطف قوله : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبٗاۚ ﴾ [٨٥] علىٰ قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [٥٩] .

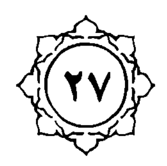
علىٰ ما بينهما من بُعدٍ ، وذكر قصصاً متعددةً ومتعاطفاتٍ كثيرةً ، فإن بينهما ستًّا وعشرين آية ، فلا خلافَ في صحَّةِ نحو هٰذا .

تقول في الكلام : (ذهبت إلىٰ السُّوقِ فاشتريت من البقالِ فاكهةً وخضراواتٍ وبيضاً ، ومن البزازِ قماشاً وقميصاً ، ومن المكتبةِ كتابين ودفتراً ، ثم عُدت) فتعطف الفعل (عدت) علىٰ (ذهبت) في أول

العبارة علىٰ ما بينهما من متعاطفاتٍ متعددةٍ مختلفةٍ .

أما لماذا فعل ذٰلك في آيةِ الوضوءِ ، فإن الغرضَ إرادةُ الترتيبِ في الوضوء ، فإنه يجب أن تكون أعمالُ الوضوءِ مرتبةً بحسب ما ذكره القرآن الكريم .

* * *



لماذا قال تعالىٰ في المائدة: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٦] ، وقال في السورة نفسها في الآية [٦٨] : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ؟

الجوابُ

إن الآية الأولىٰ قالها ربُّنا في قوم موسىٰ ؛ الذين نكلوا عن قتال الجبارين ، وقالوا : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [٢٤ ـ ٢٦] .

وقوم موسىٰ ليسوا كافرين ، وإنما هم فاسقون لمخالفةِ أمرِ اللهِ في القتالِ ، ثم إن هٰذا الوصفَ مجانسٌ لما وصفهم به موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله : ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فقال له ربُّه : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

وأما الآية الثانية فهي خطابٌ لرسوله محمدٍ ﷺ بخصوص أهل

الكتاب الذين لم يؤمنوا به ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وهٰؤلاء كافرون ، فإنهم لم يؤمنوا برسول ٱلله ، وقد قال ٱلله في هٰذه الآية : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ ﴾ فذكر أنه يزيدهم ما أُنزل إليه طغياناً وكفراً ، فقال فيهم : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ المائدةِ: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة : ٢٧] .

وقال في سورةِ الأحقافِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ﴾ [١٦] .

سؤالٌ

عدّىٰ الفعل (تقبل) في آيةِ المائدةِ بـ : (من) فقال : ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ ... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وعدّىٰ الفعلَ في آيةِ الأحقافِ بـ : (عن) فقال : ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ ﴾ فما السَّبب ؟

الجوابُ

إن تعديةَ الفعلِ (تقبل) بـ : (من) تدل علىٰ الاهتمامِ أو العنايةِ بالذاتِ أو الجهة التي يتقبل منها .

وتعديته بـ : (عن) تدل علىٰ الاهتمامِ والعنايةِ بتقبُّلِ العملِ الصادر عنها ، فإذا كانتِ العناية والاهتمام بالذات أو الجهة التي يتقبل منها عدّاه

بـ : (من) ، وذٰلك نحو قوله : ﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ ، وقـــولــــه : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧] ، وقوله : ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

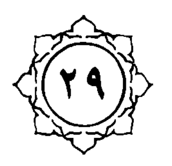
أما إذا كان محطُّ العنايةِ والاهتمامِ علىٰ العملِ وقبوله فإنه يعدّيه بـ : (عن) ، وذٰلك نحو قوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أي : نتقبل العملَ الصادرَ عنهم .

وحيث عُدِّي الفعل (تقبل) بـ : (من) لم يذكر له مفعولاً ، أو هو يبنيه للمجهولِ ؛ مما يدلُّ علىٰ الاهتمامِ بالذات أو الجهة التي يتقبل منها .

فإذا عدَّاه بـ : (عن) ذكر العمل كما في الآية المذكورة ، وهي الآيةُ الوحيدةُ في القرآن الكريم .

فدلَّ علىٰ أن مناطَ الاهتمامِ بالعملِ مع تعديةِ الفعلِ بـ : (عن) ، ومناطَ الاهتمامِ بالذاتِ أو الجهة مع تعديته بـ : (من) ، وٱلله أعلم .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧] .

وقال في سورة يونس : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾ [يونس : ١٠٧] .

سؤالٌ

لماذا اختلف التعقيب في الآيتين ، فقال في آية الأنعام : ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وقال في آية يونس : ﴿ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾ ؟

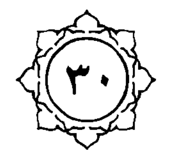
الجوابُ

إن آية الأنعام في افتراض مسِّ الخيرِ ، فقد قال : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ ، وأما آية يونسَ فهي في افتراض إرادةِ الخيرِ وليس المسَّ ، فقد قال : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ ، والإرادة من غيرِ ٱلله قد لا تتحقق ؛ لأنه قد يحول بينها وبين وقوعها حائلٌ ، وأما إرادته سبحانه فلا رادَّ لها .

فاختلف التَّعقيبان بحسب ما يقتضيه المقام .

ألا ترىٰ أنه لما اتفق الافتراضان في مسِّ الضُّر اتفق الجوابان ، فقد قال في كلٍّ منهما : ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ ؟ ولما اختلف الافتراضان كان الجواب بحسب ما يقتضيه كلُّ افتراضٍ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأنعام: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٥١] .

وقال في سورةِ الأنعامِ أيضاً : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام : ٧٠] .

وقال في سورةِ السَّجدةِ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة : ٣ ـ ٤] .

سؤالٌ

لماذا قال تعالىٰ في آيتي الأنعامِ : ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ، و : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ فنفىٰ بـ : (ليس) .

وقال في آيةِ السَّجدةِ : ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ فنفىٰ

بـ : (ما) ، وجاء معها بـ : (من) ؟

الجوابُ

إن النَّفي في آيةِ السَّجدةِ أقوىٰ منه في آيتي الأنعامِ ؛ ذٰلك أن آيتي الأنعامِ من الجمل الفعلية ، فهي مبدوءةٌ بـ : (ليس) . و(ليس) فعل .

وأما آيةُ السَّجدةِ فهي جملةٌ اسميةٌ منفيةٌ بـ : (ما) ، ومعلومٌ أن الجملَ الاسميةَ أقوىٰ من الفعلية ، و(ما) أقوىٰ من (ليس)[1] .

هـٰذا علاوةً علىٰ المجيءِ مع ذٰلك بـ : (من) الاستغراقية التي تُفيد نفي الجنسِ وتُفيد التوكيد مع ذٰلك ، فهي تُفيد نفي الولي والشَّفيع علىٰ سبيلِ الاستغراقِ .

وأما سبب ذٰلك ـ وٱلله أعلم ـ فإن الكلام في آيتي الأنعامِ علىٰ أصنافٍ خاصةٍ من الناسِ .

فإن الإنذار في الآيةِ الأولىٰ للذين يخافون أن يحشروا إلىٰ ربهم علىٰ هـٰذه الحالةِ ، وهناك غيرهم كثيرٌ من غيرِ هـٰذا الصِّنفِ ، فإن هناك مَن لا يؤمن أصلاً باليومِ الآخر ، ولا يخاف الحشر ، وهناك أصنافٌ آخرون غير هـٰؤلاء .

وأما الآية الثانية فإن التَّذكير فيها لنفي مخافةِ أن تؤخذ بجريرتها وتُسلم بذنبها وتفضح به ، وذكر من حالة هـٰذا الصِّنف بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ

(١) انظر : معاني النحو (١ / ٢٧٢) وما بعدها .

ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [٧٠] .

وأما آيةُ السجدةِ فالخطاب لعموم مَن يصحُّ خطابه من الثقلين ، لا يخصُّ صنفاً دون صنفٍ ولا واحداً دون آخر ، وإنما هو خطابٌ عامٌّ يعم الجميع ، فقد قال : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ فلم يذكر صفةً معينةً ، ولا صنفاً خاصًّا .

فلما عمَّ ذٰلك الجميع احتاج إلىٰ التوكيدِ ولا شك ، فإنه جارٍ في العادةِ أن يكون للشخص وليٌّ واحدٌ ، أو أن يكون لمجموعةٍ من الناس وليٌّ واحدٌ ، أما ألاَّ يكون للخلق جميعاً إلا وليٌّ واحدٌ وليس لأحدٍ منهم وليٌّ غيره ، فهٰذا يحتاج إلىٰ التوكيد ، فأكده بالجملةِ الاسميةِ و(من) الاستغراقية .

هٰذا أمرٌ .

والأمر الآخر أنه لم يذكر في آيتي الأنعام شيئاً من صفاتِ اللهِ ، وإنما ذكر اسمه العلم في آيةٍ ، فقال : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ ، وأعاد الضَّمير علىٰ الربِّ في الآيةِ الأخرىٰ ، فقال : ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ .

وأما في آيةِ السَّجدةِ فذكر له صفاتٍ عظيمةً ، فقال : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ [٤] .

وقال : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [٥] .

وقال : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [٦ ـ ٧] .

ويستمرُّ في ذكرِ صفاته العظيمة وقدرته التي لا تُحدُّ .

فناسب ذٰلك أن يؤكد أنه ليس للخلق من دونه وليٌّ ، ولا من دونِ رضاه شفيع ، وإنما هو الولي الأوحد للخلقِ أجمعين .

قد تقول : ولٰكنه ذكر من صفاتِ المعصيةِ والضَّلالِ في آيتي الأنعام ما لم يذكره في آية السجدةِ ، أفلا يقتضي ذٰلك توكيد نفي الوليِّ والشفيعِ فيهما ؟

والجواب : أن ليس الأمر كما توهمت ، بل لقد ذكر في سياقِ آيةِ السجدةِ من المعصية والكفر ما لم يذكر في آيتي الأنعامِ .

فقد قال في آيةِ الأنعامِ [٥١] : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ .

فلم يذكر لهم معصيةً ، وإنما قال عنهم : إنهم يخافون أن يحشروا إلىٰ ربهم في هٰذه الحالِ ، ومعنىٰ ذٰلك أنهم مقرُّون بالحشر ، معترفون به ، يخافون ربهم ويخافون أن يحشروا ، وليس لهم من دون ٱلله وليٌّ ولا شفيعٌ ، وهٰذا ليس معصيةً ولا ذنباً .

وأما آيةُ الأنعامِ الأخرىٰ فإنه قال فيها : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ

﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي : اتركهم ، ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ : أي بالقرآنِ مخافةَ أن تؤخذ نفسٌ بجريرتها وتجزىٰ بكسبها ، ولم يذكر لها ذنباً ، وأما الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ، فأمر بتركهم .

وأما آية السجدةِ فإنها في سياقِ من ينسب إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ الكذبَ وافتراء القرآن وفيمن ينكر الحشر والمعاد ، فقال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فنسبوا إليه ﷺ افتراءَ القرآنِ أي كذبه علىٰ ٱلله ، وقال عنهم : ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [١٠] .

فهم كذبوا الرسول ﷺ وأنكروا الحشر والمعاد ، ولا شكَّ أن هـٰذا أكبر مما ذُكر في آيتي الأنعامِ ، فاقتضىٰ السِّياق توكيد نفي الوليِّ والشفيعِ من دون ٱلله ، وطاعته ورضاه من هـٰذه الجهة أيضاً ، فاقتضىٰ توكيد ذٰلك في آيةِ السجدةِ من كلِّ وجهٍ ، وٱلله أعلم .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الأنعام : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٣ ـ ٨٦] .

سؤالٌ

ما سرُّ ترتيبِ الأنبياءِ في هٰذه الآياتِ ؟

الجوابُ

ربنا أعلم بسرِّ ترتيبِ كلامِه ، ولٰكن هناك أكثرُ من ظاهرةٍ في ترتيب هٰؤلاء الأنبياءِ سلام ٱلله عليهم ، فنحن نلاحظ نسقاً منتظماً في هٰذا الترتيبِ ، وهو أنه يذكر ثلاثة أنبياءٍ ثم يعود إلىٰ مَن هو أقدم من المذكورين .

ثم يذكر ثلاثة أنبياءِ آخرين ويعود بعدهم إلىٰ مَن هو أقدم ، وهـٰذا هو الأمر الظاهر في هـٰذا الترتيبِ .

١ ـ فقد ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ثم ذكر بعدهم مَن هو أقدم منهم جميعاً ، وهو نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

٢ ـ ثم ذكر بعد ذٰلك : داودَ وسليمانَ وأيوبَ ، ثم ذكر بعدهم مَن هم أقدم منهم وهم : يوسف وموسىٰ وهارون .

٣ ـ ثم ذكر بعد ذٰلك : زكريّا ويحيىٰ وعيسىٰ ، ثم ذكر بعدهم : إلياسَ وهو أقدم منهم .

٤ ـ ثم ذكر إسماعيلَ واليسعَ ويونسَ ، ثم ذكر بعدهم : لوطاً وهو أقدم منهم .

هـٰذا من ناحيةٍ .

ومن ناحية أخرىٰ : إن هناك علاقةً ما تربط بين المذكورين ، إضافةً إلىٰ علاقةِ النبوةِ التي تجمع بين الجميعِ ، وإيضاحُ ذٰلك :

١ ـ أن إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ تربط بينهم علاقةُ البنوةِ ، فإسحاق ابن إبراهيم ، ويعقوب ابن إسحاق .

٢ ـ وأن داود وسليمان تربط بينهما علاقة البنوة والملك ، فسليمان ابن داود ، وكانا ملكين .

٣ ـ وأن سليمان وأيوب كلاهما قال الله تعالىٰ فيهما : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [صٓ : ٣٠] ، أولهما : الغني الشاكر وهو سليمان ،

وثانيهما : الفقير الصابر ، والشُّكر والصَّبر جِماع الإيمانِ كما قيل ، فإن الإيمان نصفه صبرٌ ونصفه شكرٌ ، وقد جمع بينهما في سورةِ (صٓ) .

٤ ـ أيوب ويوسف : كلاهما أُنعِمَ عليه بعد الابتلاء ، وأصابه الرخاء بعد الشِّدةِ .

٥ ـ يوسف وموسىٰ : كلاهما رسولٌ ، ولم يذكر القرآن بينهما اسمَ رسولٍ فيما أعلم ، وقد قال موسىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ [غافر : ٣٤] .

٦ ـ موسىٰ وهارون يجمع بينهما الأخوةُ والرسالةُ .

٧ ـ زكريا ويحيىٰ : يجمعُ بينهما البنوةُ فيحيىٰ ابن زكريا .

٨ ـ يحيىٰ وعيسىٰ : كلاهما مستغربُ الولادةِ .

الأول : من أبوين لا ينجبان أحدهما شيخٌ فانٍ ، والآخر أمٌّ عاقرٌ ، وعيسىٰ من أمٍّ بلا أبٍ .

٩ ـ أن عيسىٰ خاتمة النسبِ من ولد إسحاقَ إذ ليس له أبٌ ، والمذكورون بعد عيسىٰ سلسلةٌ أخرىٰ ، ومن ذرية أخرىٰ ليست من ذريةِ إسحاقَ ، فكان عيسىٰ الحد الفاصل بين السلسلتين .

١٠ ـ فقد ذكر أن إلياس من ولدِ إسماعيلَ وليس من ذريةِ إسحاقَ .

١١ ـ وإسماعيلُ أخو إسحاقَ ، وهو ابن إبراهيمَ من هاجر عليهم السلام .

١٢ ـ اليسع صاحبُ إلياسَ ، وحيث ورد ذكر اليسع في القرآن ، يسبقه بذكر إسماعيلَ .

١٣ ـ يونسُ ولوطٌ كلاهما ليس من ذريةِ إبراهيمَ ، وكلاهما خرج يحمل همَّ الدعوة إلىٰ ٱلله .

فإن يونس خرج مُغاضباً قومه ، وظنَّ أن لن يضيق ٱلله عليه ، فخرج يحمل همَّ الدعوة إلىٰ ٱلله .

وإن لوطاً خرج مهاجراً إلىٰ ربه ، كما قال تعالىٰ فيه : ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾ [العنكبوت : ٢٦] .

وجمع بينهما في سورة الصَّافاتِ .

فبدأت زمر الأنبياءِ بالذاهبِ إلىٰ ربِّه وهو سيدنا إبراهيم ، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات : ٩٩] . وخُتمت بالمهاجر إلىٰ ربِّه سيدنا لوط .

قد تقول : لِمَ بدأ بسيدنا إبراهيمَ ، ولم يبدأ بسيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟

والجواب : إن الكلام والسياق في سيدنا إبراهيم ، فإن الآياتِ تبدأ بقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً . . . وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا

كَوْكَبًا . . . فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى . . . فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ . . . ﴾ .

ويستمر الكلام علىٰ سيدنا إبراهيمَ من الآية (٧٤) إلىٰ الآية (٨٣) ، فكان ذٰلك هو المناسب .

وقد أُثير سؤالٌ آخرُ في هٰذا السِّياق : وهو أنه قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ فلِمَ لَم يقل : (وأزواجهم) ؟

والجواب : إن السياق في ذكرِ الأنبياءِ ، والنِّساءُ لسن كذٰلك ، فلا يناسب ذكر الأزواجِ .

* * *



في الآياتِ السَّابقةِ وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٨٣ ـ ٨٦] .

سؤالٌ

لماذا ختم الآيات بما ختم ، فقال في مجموعةٍ من الأنبياءِ : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، وقالَ في قسمٍ آخرَ : ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ، وقال في الآخرين : ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ؟

الجوابُ

إن خاتمةَ كلِّ آيةٍ مناسبةٌ لمن ذكر فيها من الأنبياءِ ، وإن كانت كلُّ فاصلةٍ تصح علىٰ جميع الأنبياءِ .

فقوله تعالىٰ : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا

هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ذكر فيه إسحاقَ ويعقوبَ ، وقد أنعم ٱلله عليهما بالهدايةِ ، فقال : ﴿ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ ويعقوبُ أنعم ٱلله عليه بلقب (إسرائيل) ، وقيل : معناه في لسانهم : صفوة ٱلله ، وقيل : عبد ٱلله ، وقيل : رجل اللهِ ، وقيل غير ذٰلك[1] .

وأنعم عليه بعد فَقْدِ ولده بأنه أعاد إليه ولده ، وجعله عزيز مصرَ ، ورفعه ابنه علىٰ العرشِ ، وجعل أولاده أنبياء وهم الأسباط ، وذريته من بعده ينتسبون إليه اعتزازاً به فيقال : (بنو إسرائيل) .

وداود صار قائداً وصار ملكاً ، وسليمان ملكٌ ، وهب ٱلله له مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وأيوب أغناه ٱلله بعد الابتلاءِ ، وآتاه أهله ومثلهم معهم ، وآتاه مالاً وفيراً ، وموسىٰ وهارون أكرمهما ٱلله بالرسالةِ والآياتِ العظيمةِ ، والنصر علىٰ فرعون الذي أغرقه ٱلله وجنوده في اليمِّ في آيةٍ عظيمةٍ من آياتِ ٱلله .

فكلاًّ جزاه بإحسانه ، فناسب ذٰلك قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ ، فإن زكريّا قتل بعد قتل ولده ، ويحيىٰ قتل ، وعيسىٰ أُريد قتله فرفعه ٱلله إليه ، فلا يناسب ذٰلك أن يقول فيهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ؛ لأن

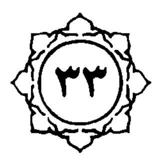
(١) انظر : الكشاف (١ / ٢١٢) ، البحر المحيط (١ / ١٧٣) ، روح المعاني (١ / ٢٤١) .

معناه أنه يجازي المحسنين بالقتلِ والخوفِ ومحاولةِ القتلِ .

وأما إسماعيلُ واليسعُ ويونسُ ولوطٌ فقد أكرمهم ٱلله بالرسالةِ والتفضيلِ علىٰ عالمي زمانهم ، ولم يعطهم ما أعطىٰ الأولين من الملكِ ونحوه .

ولم يصبهم ما أصاب مَن ذكرهم بعد الأولين من القتلِ والخوفِ ، فذكر أنه فضَّلهم علىٰ العالمين ، وهو أعلىٰ وسامٍ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

سؤالٌ

ما هٰذه الهاء في (اقتده) ، وما دلالتها ؟

الجوابُ

هٰذه الهاء اسمها هاءُ السَّكتِ ، ويؤتىٰ بها عند الوقفِ ، وفي مثل هٰذهِ المواضعِ يكون الإتيان بها جائزاً ، وقد جاءت هنا لغرضٍ لطيفٍ ، فقد جاءت بعد ذكر عددٍ من الأنبياءِ منهم إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسىٰ ، وهارون ، وزكريّا ، ويحيىٰ ، وعيسىٰ ، وغيرهم .

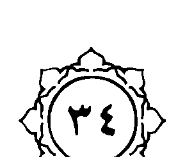
ثم قال بعد ذٰلك : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [٩٠] .

أي : اقتدِ بهدىٰ هٰؤلاءِ حصراً ، وقِفْ عنده ، ولا تطلب هدىً في غير هداهم .

أي : اقتدِ بهدىٰ هـٰؤلاءِ حصراً ، وقِفْ عنده ، ولا تطلب هدىً في غير هداهم .

وقدم الجار والمجرور ؛ للدلالةِ علىٰ القصرِ ، وهو من لطيفِ البيانِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأنعامِ: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ [الأنعام : ١٣٠] .

وقال في سورةِ الزُّمرِ : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الزمر : ٧١] .

سؤالٌ

لماذا قال في الأنعامِ : ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ وقال في الزُّمرِ : ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ ؟

الجوابُ

إن سورةَ الأنعامِ جرىٰ فيها ذكرُ قصصِ الماضين في مواضع كثيرة منها ، وفيها من التحذير ومواضع العبرةِ ما يكفي للاتعاظِ .

فمن ذٰلك قولُه تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي

ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [٦] .

وقولُه : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [١٠ ـ ١١] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [٣٤] .

أي : من أخبارِهم وقصصِهم .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٤٢ ـ ٤٥] .

ثم ذكر قصةَ إبراهيم وحيرته حتىٰ اهتدىٰ إلىٰ خالقِه في عشر آياتٍ ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً . . . ﴾ [٧٤ ـ ٨٣] .

وذكر مجموعةً من الأنبياءِ قبل وبعد إبراهيمَ ، فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ . . . ﴾ .

إلىٰ أن قال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ . . . ﴾ [٨٤ ـ ٩٠] .

ثم ذكر إشاراتٍ أخرىٰ إلىٰ أممٍ ورسلٍ سابقين .

فناسب ذكر القصصِ التي تستدعي الحذرَ والموعظةَ قولُه تعالىٰ : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾ .

وأما في سورةِ الزُّمرِ فلم يأتِ شيءٌ من ذٰلك ، ولم تأتِ إشارةٌ إلىٰ الأممِ السابقةِ غير قوله : ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢٥ ـ ٢٦] .

ثم إنه ورد في سورةِ الزُّمرِ من ذكرِ الكتابِ وما يقتضي تلاوته الكثير ، فقد قال في أول سورةِ الزُّمرِ : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [١ ـ ٢] .

والكتابُ إنما أُنزل ليُتلىٰ ويُتبع ما فيه .

وقال : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [٢٣] .

وذٰلك عند تلاوتِه أو سماعِ تلاوتِه .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [٢٧ ـ ٢٨] . وذٰلك يتبيَّنُ من تلاوتِه .

وقال : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ

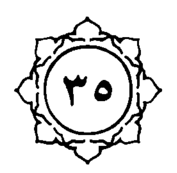
وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [٤١] . وإنما أنزله ليتلوه عباده ، ويعملوا بما فيه ، ويتعظوا .

وقال : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [٥٥] ، وذٰلك يكون بتلاوتِه ، والاطلاع علىٰ ما فيه .

حتىٰ إنه ذكر الكتاب في مشهدٍ من مشاهدِ القيامةِ ، فقال : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ ، والكتاب إنما جيء به ليَطلع عليه مَن يطَّلع ، وذٰلك إنما يكون بتلاوةِ ما فيه .

ومما قيل في ذٰلك الكتاب : إنه صحائفُ الأعمالِ ، وقيل : إنه اللوحُ المحفوظُ ، وقيل غير ذٰلك ، فناسب ذكرُ التلاوةِ في الزمرِ والقصُّ في الأنعامِ ، واللهُ أعلم .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأعرافِ : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : ١٨] .

وقال في سورةِ (صٓ) : ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٤ ـ ٨٥] .

سؤالٌ

لماذا قدَّم في آيةِ الأعرافِ مَن تبعه علىٰ ملءِ جهنمَ ، فقال : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وقدَّم ملء جهنمَ علىٰ مَن تبعه في آية (صٓ) فقال : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ؟

الجوابُ

إن كلتا الآيتين في قصةِ آدم وإبليس في السورتين ، وقد تقدَّم قبل هـٰذه القصة في سورة (صٓ) الكلام علىٰ جهنمَ وعذابها ، وذٰلك من قـوله : ﴿ هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [٥٥ ـ ٦٤] .

فلما تقدَّم الكلامُ علىٰ جهنمَ قدَّم ما يتعلق بها وهو ملءُ جهنمَ .

وأما في سورةِ الأعرافِ ، فقد تأخر ذكرُ جهنمَ وعذابها عن هـٰذه القصة ، فلما تأخر ذكرُ جهنمَ أخَّر ما يتعلق بها في القصة .

هـٰذا أمر ، والأمر الآخر أنه تقدَّم علىٰ القصةِ في الأعرافِ ذكرُ مَن تبع إبليس ، ممن أهلكهم ٱلله من أهلِ القُرىٰ ، فقال : ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [٤ ـ ٥] .

وتَقدَّمها عتابُ ربِّنا لأهلِ الأرضِ لقلَّةِ شكرِهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [١٠] .

فكأنه صدَّق عليهم إبليس ظنه ، فاتبعوه حين قال في قصَّةِ آدم في هـٰذه السورة : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [١٧] .

فناسبَ تقديمُ مَن اتبعوه في الأعرافِ من هـٰذه الناحيةِ أيضاً .

هـٰذا إضافةً إلىٰ أن إبليس ذكر في الأعرافِ ما سيحتال لذريةِ آدمَ ؛ ليتبعوه أكثر مما ذكره في (صٓ) ، فقد قال :

١ ـ ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ .

٢ ـ ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ .

٣ ـ ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ .

٤ ـ ﴿ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ .

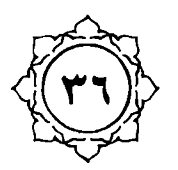
٥ ـ ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ .

٦ ـ ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] .

في حين قال في (صٓ) :

ـ ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [٨٢ ـ ٨٣] ، فلما أفاضَ فيما سيفعله ، ويحتال لذريةِ آدمَ في الأعرافِ ليتبعوه ، ناسبَ أن يقدم مَن تبعه من هٰذه الذُّريةِ ، بخلاف ما في (صٓ) التي لم تكن فيها مثلُ هٰذه المناسبةِ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه من كلِّ وجهٍ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأعرافِ: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥ ـ ٥٦] .

وقال فيها : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] .

وقال في سورةِ الأنعامِ : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٣ ـ ٦٤] .

سؤالٌ

لماذا ذكر الخوف في آيتي الأعرافِ ، فقال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ وقال في الآيةِ الثانية : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ والخيفةُ هي الخوفُ ، ولم يذكرِ الخوفَ في آيةِ الأنعامِ ، وإنما قال : ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ والخفيةُ نقيضُ الجهرِ ؟

الجوابُ

إن الدعاءَ والذكر المذكورين في آيتي الأعرافِ ، إنما هما في مقامِ

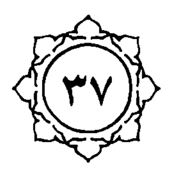
العبادةِ ، والخوف المذكور فيهما إنما هو الخوفُ من اللهِ دعاءً وذكراً .

وأما آيةُ الأنعامِ فهي في مقامِ الخوفِ مما قد يحيطُ بالناسِ في ظلماتِ البرِّ والبحرِ ، فلو ذكر الخوف لانصرف إلىٰ هـٰذه الأمورِ المخوفةِ ، ولم ينصرف إلىٰ الخوفِ من ٱلله .

والخوفُ في مثلِ هـٰذه المواطن مما يعتري النفس البشرية ، وهـٰذا ظاهرٌ معلومٌ ، وقد أوضحته الآيةُ وسياقها ، فقد ذكرَ تضرعهم وتذللهم إليه سبحانه قائلين : ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ وطلبُ النجاةِ إنما يكون من الأمورِ المخوفةِ .

وقال بعد ذٰلك : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ فسمَّىٰ ذٰلك كرباً ، فاتضح الفرق بين الموضعين فناسب كلٌّ تعبيرٍ موضعَه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأعرافِ في قصَّةِ نوحٍ : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٤] .

وقال في سورةِ يونسَ في قصة نوحٍ : ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ [يونس : ٧٣] .

سؤالٌ

لماذا قال في سورةِ الأعرافِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ وقال في سورة يونس : ﴿ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾(١) ؟

الجوابُ

من أوجهٍ منها :

١ ـ أن (الذين) اسمٌ موصولٌ مختصٌّ ، وهو يخصُّ جماعةَ

(١) أما السؤال عن نجينا وأنجيناه فقد ذكرناه في كتابنا (**بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**) (ص٧٢) .

الذكورِ العقلاءِ ، ولا يُطلق علىٰ المفردِ أو المثنىٰ .

وأما (من) فإنه اسمٌ موصولٌ مشتركٌ ، يطلق علىٰ المفردِ والمثنىٰ والجمع المذكرِ والمؤنثِ .

وأن سياق القصةِ في سورةِ يونسَ فيه إلماحٌ إلىٰ أن قومه كبر عليهم تذكيره لهم بآياتِ ربهم ، وبقاؤه بينهم يبلِّغ دعوةَ ربِّه ، وأن نوحاً تحدّاهم بأن يجمعوا أمرهم ، ويسعوا في إهلاكه ، وألا يمهلوه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [٧١] .

وليس الأمرُ في الأعرافِ كذٰلك ، وإنما هو تبليغٌ ودعوةٌ ، وقصارىٰ ما قال فيه الملأ من قومه : ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ، فردَّ عليهم قائلاً : ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فلما كانتِ المواجهةُ في يونسَ أشدَّ ، وأنه تحداهم أن يجمعوا أمرهم ، ويسعوا في إهلاكه ، وألا يُمهلوه ، كان ذٰلك مدعاةً إلىٰ قلةِ من يؤمن له وأن يخاف من يخاف في مثل هٰذا الظرف العصيب .

فقال في هٰذا السياقِ : ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ وهٰذا يحتمل في اللغةِ أن يكون معه شخصٌ أو شخصان ، وليس فيه تنصيصٌ علىٰ الجمعِ .

وأما في الأعرافِ فإن قوله : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ تنصيصٌ علىٰ أن معه جماعة من المؤمنين له ، وليس شخصاً واحداً أو شخصين قطعاً ،

فناسبت حالةُ التحدي والمواجهةِ الشديدةِ أن يقول : (من) التي ليس فيها تنصيصٌ علىٰ الجمع .

وفي الحالةِ الأخرىٰ أن يقول : (الذين) التي هي تنصيصٌ علىٰ أن المؤمنين له جماعةٌ ، وليس واحداً ؛ ذٰلك أن السياق لا يستدعي مثل حالةِ الخوفِ تلك ، ولا يستدعي قلة المؤمنين علىٰ النحوِ الذي في يونس .

٢ ـ إن القصةَ في الأعرافِ أطولُ مما في يونس ، فإنها في الأعرافِ ستُّ آياتٍ ، من الآيةِ التاسعة والخمسين إلىٰ الآيةِ الرابعةِ والستين ، وهي في يونس ثلاثُ آياتٍ من الآيةِ الحادية والسبعين إلىٰ الآيةِ الثالثةِ والسبعين .

وإن كلمة (الذين) أطولُ من (من) فناسب في مقامِ الإطالةِ أن يأتي بأطولِ الكلمتينِ .

٣ ـ وعلاوةً علىٰ ذٰلك فإن كلمة (من) في يونسَ أكثرُ مما في الأعرافِ .

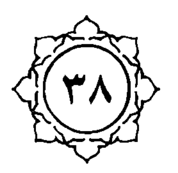
وإن كلمة (الذين) في الأعرافِ أكثر مما في يونسَ ، فإن كلمةَ (من) وردت في يونسَ (٢٤) أربعاً وعشرين مرةً ، ووردت في الأعرافِ (١٨) ثماني عشر مرةً .

وأن كلمة (الذين) وردت في الأعرافِ (٤٧) سبعاً وأربعين مرةً ، ووردت في يونسَ (٢٨) ثمانياً وعشرين مرةً .

فناسب كلٌّ تعبيرٍ موضعَه من حيث السِّمة التَّعبيرية لكل سورةٍ[١] .
فاتضح أن كلَّ تعبيرٍ مناسب لموضعه الذي ورد فيه من كلِّ وجهٍ .

* * *

(١) انظر : موضوع (السمة التعبيرية للسياق) في كتابنا (التعبير القرآني) .



قال تعالىٰ في سورةِ الأعرافِ : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] .

وقال في سورةِ طٰه [٧١] ، وفي سورةِ الشعراءِ [٤٩] : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ .

سؤالٌ

لماذا قال في سورةِ الأعرافِ : ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ وقال في سورتي طٰه ، والشعراء : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ ؟

الجوابُ

إن معنىٰ : ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ أي بٱلله تعالىٰ .

و : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ أي : لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والمعنىٰ : صدَّقتم وأقررتم له ، والسياقُ يوضحُ ذلكَ .

قال تعالىٰ في الأعرافِ : ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ .

وقال في سورةِ طـٰه : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ ﴾ ، فقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ ﴾ يعني موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

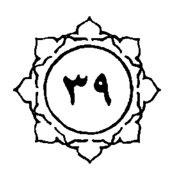
وقال في سورةِ الشعراءِ : ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ . وهو نحو ما مر في طـٰه .

وإذا رأيت الإيمانَ معدَّىٰ باللامِ ، فاعلم أنه لغيرِ اللهِ فإنه لا يعديه مع ٱللَّه إلا بالباءِ نحو قوله : ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة : ٤] وقوله : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

وفي القرآنِ عدَّىٰ (آمن) باللامِ مع الأشخاصِ غالباً ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] ، وقوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ [التوبة : ٩٤] ، وقوله : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦١] .

وربما استعمله مع غيرِ الأشخاصِ نادراً ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ [الإسراء : ٩٣] .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأعرافِ : ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف : ١٤٤ ـ ١٤٥] .

سؤالٌ

لماذا قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ ، وقال في الآيةِ التاليةِ لها : ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ فذكر القوةَ ولم يذكرها في الآيةِ الأولىٰ ؟

الجوابُ

إن ذٰلك لعدةِ أمورٍ منها :

١ ـ أن الآيةَ الأولىٰ في الإيتاءِ ، والثانيةَ في الإيتاءِ والتبليغِ ، فقد أمره في الآيةِ الثانيةِ أن يأخذَ ما آتاه بقوةٍ ، ويُبلغه قومه ، فقد قال له فيها : ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ ، وهٰذا أمرٌ بالتبليغِ ، والتبليغُ يحتاجُ إلىٰ قوةٍ وجهدٍ وعزيمةٍ .

٢ ـ إنه طلب من قومه في الآيةِ الثانيةِ أن يأخذوا بأحسنها ، فإنه لم

يقل : (وأمر قومك يأخذوا بها) بل قال : ﴿ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَاۚ ﴾ وهو أقوىٰ من عمومِ الأخذِ وآكد ، ذٰلك أن فيما آتاه حسناً وأحسن ، فأمرهم أن يأخذوا بالأحسنِ ، فإذا كان قومه مأمورين بما هو أقوىٰ وآكد ، ناسب أن يكون هو كذٰلك ، فكان مأموراً أن يأخذها بقوة .

٣ ـ إن في الآيةِ الثانيةِ تفصيلاً ليس في الآيةِ الأولىٰ .

فإنه قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ ، فقال : ﴿ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ علىٰ الإجمالِ .

وفصَّل في الآيةِ الثانيةِ ما آتاه ، فقال : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

وأجمل في الطلبِ في الآيةِ الأولىٰ ، فقال : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ ، وفصَّل في الآيةِ الثانيةِ ما أجمله في الآيةِ الأولىٰ من الطَّلبِ ، فقال : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَاۚ ﴾ .

فكما أجمل في ذكرِ ما آتاه في الآيةِ الأولىٰ أجملَ في الأمرِ بأخذها ، وكما فصَّل في ذكرِ ما آتاه في الآيةِ الثانيةِ ، فصَّل وبيَّن في الأمرِ بأخذِه ، فناسبَ الإجمالُ الإجمالَ ، والتفصيلُ التفصيلَ .

٤ ـ ومما حسَّن ذٰلك أيضاً ـ إضافة إلىٰ ما ذكرنا ـ أن الآيةَ الأولىٰ وردت عقبَ إفاقةِ موسىٰ بعدما خرَّ صعقاً ، فقد جاءتِ الآيةُ الأولىٰ عقبَ قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٤٣] .

والإنسانُ بعدما يفيق من صعقةٍ يصعقها يكون واهنَ القِوىٰ .

وقد ذكر قبل الآيةِ الأولىٰ أكثرُ من أمرٍ يدعو إلىٰ وهنِ القوةِ ، فقد ذكر أنه ﴿ خَرَّ ﴾ أي : قد هوىٰ وسقطَ ، والخرور مدعاةٌ إلىٰ الوهنِ .

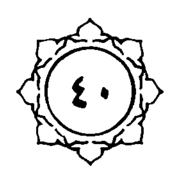
وذكر أنه (صعق) أي غشي عليه ، ومعنىٰ (صعق) في اللغةِ : غُشي عليه وذهب عقله[١] ، وأن قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ دليلٌ علىٰ الغشيِّ[٢] . والصعقُ مدعاةٌ إلىٰ وهنِ القوىٰ .

فكلٌّ من الخرورِ والصعقِ يدعو إلىٰ الوهنِ فكيف إذا اجتمعا ؟

فلم يذكر الأخذ بالقوةِ بعد ذكرِ الإفاقةِ مباشرةً ؛ إذ العادةُ أن يكون الإنسانُ واهناً في مثل هـٰذا الوقت ، فأخره إلىٰ ما بعد ذٰلك في الآيةِ الثانيةِ ، فناسبَ كلُّ تعبيرٍ موضعَه من كلِّ وجهٍ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

(١) انظر : لسان العرب (صعق) (١٢ / ٦٦) .
(٢) انظر : لسان العرب (صعق) (١٢ / ٦٧) .



قال تعالىٰ في سورةِ الأنفالِ: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٢ ـ ٥٤] .

سؤالٌ

١ ـ ما الفرقُ بين الدأبين المذكورين لآلِ فرعونَ في الآيةِ الثانيةِ والخمسين ، والآيةِ الرابعةِ والخمسين ؟

٢ ـ لماذا قال في الآيةِ الثانيةِ والخمسين : ﴿ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، وقال في الآيةِ الرابعةِ والخمسين : ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ ؟

الجوابُ

١ ـ الدأبُ الأولُ هو مشابهتهم لهم في الكفرِ ، ذلك أنه سبق الآيةَ الأولىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ

وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ . . . ﴾ [٥٠ ـ ٥٢] .

فالدأبُ الأولُ هو مشابهتهم في الكفرِ والجري علىٰ عادتِهم ، ألا ترىٰ أنه قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ ، ثم قال : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ .

أما الدأبُ الثاني فإنه مشابهتهم لهم في تغييرِ النِّعمِ والأحوالِ ، فقد قال قبلَ الآيةِ الرابعةِ والخمسين : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٥٣] ، ثم قال بعدها : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

قد تقول : وما التغييرُ الذي أحدثوه ، فإنهم كفارٌ علىٰ كلِّ حالٍ ، ولم يغيروا شيئاً ؟

فنقول : إنهم كانوا علىٰ حالٍ من الكفرِ ، حتىٰ جاء موسىٰ فدعاهم وأنذرهم ، وجاءهم بالآياتِ الدالةِ علىٰ صدقه ، فكذبوا بها فزادوا علىٰ ما هم عليه تكذيبهم بآياتِ اللهِ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ فعاجلهم العقوبة بالإغراق .

جاء في (البحر المحيط) : « وتغيير آلِ فرعونَ ومشركي مكةَ ، ومَن يجري مجراهم بأن كانوا كفاراً ، ولم تكن لهم حالةٌ مرضيةٌ ، فغيروا تلك الحالة المسخوطة إلىٰ أسخط منها ، من تكذيبِ الرسلِ والمعاندةِ والتخريبِ وقتلِ الأنبياءِ والسعي في إبطالِ آياتِ ٱلله ، فغيَّر ٱلله تعالىٰ

ما كان أنعم عليهم به وعاجلهم ولم يمهلهم »[١] .

وجاء في (الكشاف) : « أي : دأبُ هٰؤلاءِ مثل دأبِ آلِ فرعونَ ، ودأبهم عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه ؛ أي داوموا عليه وواظبوا ، و(كفروا) تفسيرٌ لدأب آل فرعون . . .

﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ فإن قلت : فما كان من تغيير آلِ فرعونَ ومشركي مكة حتىٰ غيَّر ٱللهُ نعمته عليهم ، ولم تكن لهم حالٌ مرضيةٌ فيغيروها إلىٰ حالٍ مسخوطةٍ ؟

قلت : كما تغيرت الحالُ المرضيةُ إلىٰ المسخوطةِ تغيرتِ الحالُ المسخوطةُ إلىٰ أسخط منها .

وأولئكَ كانوا قبل بعثةِ الرسولِ ﷺ إليهم كفرةً عبدةَ أصنامٍ ، فلما بعث إليهم بالآياتِ البيناتِ ، فكذبوه وعادوه ، وتحزبوا عليه في إراقة دمه ، غيروا حالهم إلىٰ أسوأ مما كانت ، فغير ٱلله ما أنعم به عليهم من الإمهالِ وعاجلهم بالعذابِ »[٢] .

٢ ـ وأما الجوابُ عن السؤالِ الثاني فإن كلَّ عقوبةٍ مناسبةٌ للحالةِ التي هم فيها ، فقد قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وقال في الأخرىٰ : ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ .

---

(١) البحر المحيط (٤ / ٥٠٧) .
(٢) الكشاف (٢ / ٢٠) .

ذٰلك أن الكفرَ أعمُّ من التكذيبِ بآياتِ ٱلله ، فقد يكون الكفرُ بالتكذيبِ وبغيره ، من نحو عبادةِ غيرِ ٱلله ، والمعتقداتِ الباطلةِ ، وغير ذٰلك من نحو ما أخبر به ربُّنا في قوله : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة : ٧٣] ، وقوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ٧٢] ، وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

فالتكذيبُ بآياتِ اللهِ نوعٌ من أنواعِ الكفرِ .

فقال في عقوبةِ الكفرِ : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وهو أمر عام يشمل عقوبات الدنيا والآخرة .

وقال في عقوبةِ التكذيبِ بالآياتِ : ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ ، وهٰذه حالةٌ من حالاتِ الأخذِ بالذنوبِ ، فقد يكون الأخذُ بالذنوبِ بالتعذيبِ والسجنِ والنارِ وغير ذٰلك .

فجعلَ عقوبةَ الكفرِ الذي هو عامٌّ ، الأخذَ بالذنوبِ وهو عامٌّ ، وجعل عقوبةَ التكذيبِ بالآياتِ الذي هو أخصُّ من الكفرِ بالإهلاكِ والإغراقِ ، وهو أخصُّ .

هٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن قوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ عقابٌ عامٌّ قد يكون في الدنيا ، وقد يكون في الآخرةِ ، وقد يكون فيهما .

وأما قوله : ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ فإنه عقابٌ في الدنيا فهو أخصُّ من حيث الوقتُ ، فإن الإهلاكَ والإغراقَ إنما يكونان في

الدنيا وليسا من عقابِ الآخرةِ ، فكانت عقوبةُ الكفرِ أعمَّ من حيث النوع والوقت .

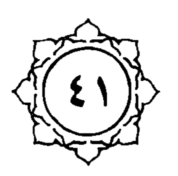
ومن الملاحظ أنه قال في الآيةِ الرابعةِ والخمسين : ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ فذكر الرب وأضافه إلىٰ ضميرهم ، في حين قال في الآية الثانية والخمسين : ﴿ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ذٰلك أنه قبل ذكرِ التكذيبِ بآياتِ ربهم ذكر نعمه عليهم ، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ فناسب ذكرُ الربِّ ؛ لأن الربَّ هو المربي والمنعم ، جاء في (روحِ المعاني) : « وأشير بلفظ الربِّ إلىٰ أن ذٰلك التغييرَ كان بكفر نعمه تعالىٰ لما فيه من الدلالة علىٰ أنه مربيهم المنعم عليهم »[1] .

ثم إنه أضافَ الربَّ إلىٰ ضميرهم ؛ ليبين قبحَ كفرهِم ، فإنهم كفروا بآيات ربهم الذي أنعم عليهم ، فإنه من أقبح كفرِ النعمِ أن تكفر نعمة ربك ؛ الذي رباك وأنعم عليك ، فذٰلك أدل علىٰ قبحِ كفرهم .

هٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أنه ذكر مرةً لفظَ الجلالةِ (ٱلله) ، ومرةً ذكرَ الربِّ ؛ ليدل علىٰ أن الرب هو ٱلله وليس شيئاً آخرَ .

* * *

(١) روح المعاني (١٠ / ٢٠) .



قال تعالىٰ في سورةِ يونسَ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس : ١٩] ، وقال في سورةِ هودٍ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [هود : ١١٠] ، وقال في سورةِ فصلت : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [فصلت : ٤٥] ، وقال في سورةِ الشورىٰ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورىٰ : ١٤] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ الشُّورىٰ : ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ولم يقلْ مثل ذٰلك في بقيةِ الآياتِ ؟

الجوابُ

إن الآياتِ في يونسَ وهودٍ وفصلتْ إنما هي في أمةٍ واحدةٍ ، والقضاءُ يمكن أن يكون بينهم عاجلاً أو آجلاً .

أما آيةُ الشُّورىٰ فهي في أممٍ مختلفةٍ أكثرها هالكٌ ، فلا يمكن القضاء بينهم في الدنيا ، وإنما يقضىٰ بينهم في الآخرةِ ، وهو الأجلُ المسمَّىٰ لذٰلك .

وإيضاحُ ذٰلك أنه قال في يونسَ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فهي أمةٌ واحدةٌ اختلفت ، والقضاء بينهم ممكنٌ ؛ لأنهم أمةٌ واحدةٌ مختلفةٌ .

وقال في هودٍ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ ، وهٰذه الآية في بني إسرائيل حين اختلفوا في الكتابِ ، والقضاءُ بينهم ممكنٌ في الحياةِ الدنيا ، ونحوها آية فصلت فإنها تطابق آية هود ، قال تعالىٰ في فصلت : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ .

وأما آيةُ الشورىٰ فهي في سياقِ أممٍ مختلفةٍ متعاقبةٍ ، منها أممٌ مندثرةٌ هالكةٌ ، فكيف يكون القضاء بينها في غير اليوم الآخر وهو الأجل المسمىٰ ؟ قال تعالىٰ : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [١٣ ـ ١٤] . فناسب كلٌّ تعبيرٍ مكانه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ يونسَ : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٤٦] .

وقال في سورةِ غافر : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : ٧٧] .

وقال في سورة الرعد : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] .

سؤال

لماذا رُسمت ﴿ وَإِمَّا ﴾ في آيتي يونسَ وغافرٍ متصلةً ، ورُسمت في آية الرَّعدِ : ﴿ وَإِن مَّا ﴾ منفصلةً مع أنها كلها في هـٰذه الآياتِ إنما هي (إنْ) الشرطيةُ مع (ما) الزائدةِ المؤكدةِ ؟

الجواب

إن هـٰذا من أمورِ رسمِ المصحفِ ، ورسم المصحفِ لا يُقاس عليه ، ولـٰكن مع ذٰلك قد يبدو أن لهـٰذا الاختلافِ تعليلاً ، ولا ندري إن كان مقصوداً أم لا .

فنقول : إن السياقَ في آيتي يونسَ وغافرٍ إنما هو في الكلامِ علىٰ الآخرةِ ، والآيتان تذكران الرُّجوعَ إلىٰ ٱلله ، فقد قال في آيةِ يونسَ : ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ وقال في آيةِ غافرَ : ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ ، وهـٰذا الرجوعُ في الآيتين إنما هو في الآخرةِ .

قال تعالىٰ في يونسَ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [٤٥ ـ ٤٧] .

فقوله : ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ يعني في يومِ القيامةِ ، وهو متصلٌ بما ذكره من أمورِ الآخرةِ ، وواقعٌ فيه .

وقال في غافر : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [٧٠ ـ ٧٧] .

فالكلامُ كما ترىٰ في سياقِ عذابِ الآخرةِ ، وقد وقعت الآية في هـٰذا السياقِ ، فإن قوله : ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يعني في الآخرةِ ، وهو متصلٌ بما ذكره من أمورِ الآخرةِ .

وأما السياقُ في الرعدِ فهو في الدنيا ، فقد جاء قبل الآيةِ قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ . . . ﴾ الآية [٣٧ ـ ٤٠] .

وجاء بعدها قولُه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [٤١] .

فقوله : ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ إنما هو في الآخرةِ ، فهو يذكر أمراً سيقع في الآخرةِ ، والكلامُ إنما هو علىٰ الدنيا بخلافِ آيتي يونسَ وغافرٍ ، فإنهما في سياقِ الآخرةِ .

ففُصِلت (ما) عن (إن) في الرعدِ إشارةً إلىٰ الفصلِ بين الأحداثِ ، فالكلامُ علىٰ الدنيا ، والحسابُ إنما هو في الآخرةِ .

ووصلت (ما) بـ : (إن) في آيتي يونسَ وغافرَ ، إشارةً إلىٰ أن الأحداثَ متصلةٌ ببعضها ، واللهُ أعلمُ .

* * *



قال في سورةِ يونسَ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] .

وقال في سورة القمر : ﴿ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر : ٥] .

سؤالٌ

لماذا رُسم الفعل (تغني) في آية يونس بالياءِ ، ورُسم في آيةِ القمرِ من دون ياءٍ أي : (تغن) ؟

الجوابُ

إن رسم المصحف لا يُقاس عليه كما هو معلومٌ ، ومع ذٰلك فإنه يبدو أن هٰذا الاختلاف في الرسمِ له دلالته .

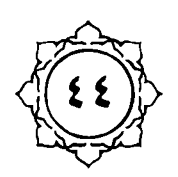
فلقد زاد في آيةِ يونسَ علىٰ ما في القمرِ ، فقد قال في القمرِ : ﴿ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ ، وقال في يونسَ : ﴿ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ ﴾ فزاد الآياتِ علىٰ النذرِ فزاد في الرسمِ تبعاً لذٰلك .

ثم إنه عندما تزيد دواعي الإغناءِ ينبغي أن يزيد الإغناءُ ، فلما زادتِ

الدواعي في يونسَ انبغىٰ أن يزيد الإغناءُ .

ولما نقصتِ الدواعي في القمرِ نقص شيءٌ من الحدثِ تبعاً لذٰلك ، فنقص من الرسمِ في القمرِ مناسبةً لنقصِ الدواعي ، واللهُ أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ هودٍ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [هود : ٢٠] .

وقال في سورةِ الشورىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورىٰ : ٣١] .

سؤال

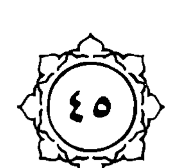
لماذا قال في هودٍ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ فجاء بالفعلِ الماضي ، وقال في سورة الشورىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ بأسلوبِ الخطابِ للحاضرِ ؟

الجواب

إن الكلامَ في هودٍ إنما هو في الآخرةِ ، وهو يدور علىٰ أحداثٍ ماضيةٍ كانت في الدنيا ، فقد قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [١٨] ،

فاقتضىٰ ذكرُ الفعلِ الماضي ، وأما الخطابُ في الشورىٰ فهو في الدُّنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [٣٠] . فاقتضىٰ كل منهما ما ذكر في موضعِهِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ هودٍ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [هود : ٤٠] .

السؤالُ الأولُ

ما المقصودُ بـ : (أهلك) أَهُمُ الأهلُ ، أم هو فعلٌ ماضٍ من الإهلاكِ ؟

الجوابُ

إن المقصودَ بـ : (أهلك) هم الأهلُ ، وليس فعلاً ماضياً ، ويدلُّ علىٰ ذٰلك أمورٌ منها :

١ ـ أن الإهلاكَ لم يحصل بعدُ ، وأن المؤمنين لم يركبوا بعد في السفينةِ ، فإنه قال بعدَ هـٰذهِ الآيةِ : ﴿ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ ﴾ [٤١] .

٢ ـ لو كان (أهلك) فعلاً ماضياً لكان الاستثناء مفرَّغاً ، أي : إن المستثنىٰ منه غيرُ مذكورٍ ، والاستثناءُ المفرَّغُ إنما يكون في النفي

وشبهه ، ولا يقع في الإثباتِ إلا نادراً ، والفعلُ في الآيةِ مثبتٌ فلا يترجح أنه فعل .

٣ ـ ومما يدلُّ علىٰ أن المقصودَ بـ : (أهلك) هم الأهل ، قوله تعالىٰ في سورة (المؤمنون) : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ [٢٧] فإن الضميرَ في (منهم) يعودُ علىٰ الأهلِ .

٤ ـ لو كان المقصودُ بـ : (أهلك) الفعلَ لكان الناجون جماعتين :

أ ـ مَن سبق عليه القولُ .

ب ـ ومَن آمن .

وهـٰذا يقتضي أن مَن سبقَ عليه القولُ ليسوا ممن آمن ، ومع ذٰلك فقد نجا ، وهـٰذا لا يصحُّ .

٥ ـ المجيء بـ : (علىٰ) مع الفعل (سبق) يدلُّ علىٰ أن المقصود بمن سبق عليه القول أنه معذبٌ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ و : ﴿ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ ونحو ذٰلك .

بخلافِ استعماله مع اللامِ فإنه بشرىٰ بالحسنىٰ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ ـ ١٧٢] .

السؤال الثاني

قال في هـٰذه الآيةِ ـ آيةِ هودٍ ـ : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ ، وقال في آيةِ (المؤمنون) : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ فذكر في آية (المؤمنون) (منهم) ولم يذكر ذٰلك في آيةِ هودٍ ، فما سبب ذٰلك ؟

الجواب

إن القصة في سورة هود مبنيةٌ علىٰ العمومِ في أكثرِ من جانبٍ من جوانبها ، أما القصةُ في سورةِ (المؤمنون) فمبنية علىٰ الخصوصِ ، ومما يوضح ذٰلك :

١ ـ قوله في هودٍ : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ ، وقوله في (المؤمنون) : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ وما في هودٍ أعمُّ مما في (المؤمنون) فإنه لم يقل (منهم) .

٢ ـ أنه قال في هودٍ : ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ فزاد علىٰ الأهلِ : ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ ولم يذكر ذٰلك في (المؤمنون) .

ولا شكَّ أن ما في هودٍ أعمُّ فإنه زاد علىٰ الأهلِ من آمن .

٣ ـ أنه قال في هودٍ : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [٤٣] ، وهـٰذا يفيدُ العمومَ فإنه استغرق نفي العاصمِ إلا مَن رحمَ ٱلله ، وذٰلك أنه نفىٰ بـ : (لا) النافيةِ للجنسِ ، ولم يقلْ مثل ذٰلك في (المؤمنون) .

٤ ـ قال في هودٍ : ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [٤٨] . وقال في (المؤمنون) : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [٢٩] .

فإنه في هودٍ زاد السلام علىٰ البركاتِ ، ولم يذكر ذٰلك في (المؤمنون) ، وقال في هودٍ : ﴿ وَبَرَكَـٰتٍ ﴾ وهو جمعُ بركةٍ ، في حين قال في (المؤمنون) : ﴿ مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾ بالإفراد .

وقال في هودٍ : ﴿ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ ، ولم يقلْ مثل ذلكَ في (المؤمنون) ، وإنما دعا لنفسه : ﴿ أَنزِلْنِى ﴾ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ هودٍ في قصةِ عادٍ : ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [هود : ٦٠] .

وقال في سورةِ هودٍ أيضاً في قومِ فرعونَ : ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٩] .

سؤالٌ

لماذا قال في عادٍ : ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ فذكر (الدنيا) ، وقال في قومِ فرعونَ : ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً ﴾ ولم يذكرِ الدنيا ، مع أن المقصود بالإشارةِ هي الدُّنيا ؟

الجوابُ

١ ـ إن قصةَ عادٍ في السورةِ أطول من قصة موسىٰ وفرعون ، فقصة عاد إحدىٰ عشرة آيةٍ ، تبدأ من الآية الخمسين إلىٰ الآيةِ الستين ، وأما قصة موسىٰ فهي أربعُ آياتٍ من الآيةِ السادسةِ والتسعين إلىٰ الآيةِ التاسعةِ والتسعين .

فناسب ذكرُ (الدنيا) مقامَ الإطالةِ والتبسطِ في قصةِ عادٍ ، وناسب

عدمُ ذكرها والاكتفاء بالإشارةِ إليها في مقامِ الإيجازِ .

٢ ـ ذكرَ في قصة عادٍ أموراً تتعلَّق بالدنيا ، منها أنه قال فيها : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ ﴾ [٥٢] ، فقد ذكر في هٰذه الآيةِ أمرين مهمَّينِ من أمورِ الدنيا :

أحدَهما : سعةُ الرزقِ ، وبه تقومُ الحياةُ ، وهو قوله : ﴿ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴾ .

والآخرَ : زيادةُ القوةِ ، وبه استمرارُ الحياةِ الكريمةِ ، وهو قوله : ﴿ وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ ﴾ ولم يذكرْ أمراً يتعلق بالدنيا في قصةِ موسىٰ .

فناسب ذكر الدنيا والإشارةُ إليها في قصةِ عادٍ ، وعدمُ ذكرِها والاكتفاءُ بالإشارةِ إليها في قصةِ موسىٰ من هٰذه الجهةِ أيضاً .

٣ ـ أشار إلىٰ العذابِ الذي أحاط بعادٍ ، ونجاةِ هودٍ ومَن آمن معه في الدنيا ، فقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ [٥٨] .

ولم يُشر إلىٰ عذابٍ أو عقوبةٍ أحاطت بفرعونَ وملئه في الدنيا ، فناسب من جهةٍ أخرىٰ ذكر (الدنيا) ، والإشارة إليها في قصةِ عادٍ ، والاكتفاءُ بالإشارةِ إليها في قصةِ موسىٰ .

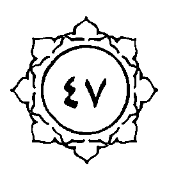
٤ ـ ذكرَ العذابَ الذي سيصيبُ فرعونَ وقومه يوم القيامةِ ، فقال : ﴿ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴾ [٩٨] ، ولم يذكرْ شيئاً عن عذابِ سيصيب عاداً يومَ القيامةِ .

فناسبَ من جهةٍ أخرىٰ ذكرَ الدنيا في قصةِ عادٍ ، وعدمَ ذكرها والاكتفاءَ بالإشارةِ إليها في قصةِ فرعونَ .

ويحسنُ أن نذكر من جهةٍ أخرىٰ أنه اختلف التعقيبُ بعد كلِّ قصةٍ بما يناسبُ المقامَ ، فقد قال تعقيباً علىٰ قصةِ عادٍ : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، وقال تعقيباً علىٰ قصةِ فرعونَ : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [٩٨ ـ ٩٩] ، فلم يزدْ علىٰ قوله : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ في قصةِ عادٍ ؛ لأنه لم يذكر فيها أمراً يتعلَّق بيومِ القيامةِ .

وقال في قصةِ فرعونَ بعد ذكرِ العذابِ : ﴿ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ ثم قال بعد قوله : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ : ﴿ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ ، فكان كلُّ تعبيرٍ أنسب بالموضع الذي ورد فيه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ هودٍ في قومِ صالحٍ: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود : ٦٧] .

وقال في السورةِ نفسها في مدينَ قومِ شعيبٍ : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود : ٩٤] .

سؤالٌ

لماذا قال في قومِ صالحٍ : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ بتذكير الفعل (أخذ) ، وقال في قومِ شعيبٍ : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ بالتأنيث مع أن الفاعل واحدٌ ، والفصل بين الفعلِ والفاعلِ واحدٌ ؟

الجوابُ

من المعلوم أنه يجوز في نحو هـٰذا تذكيرُ الفعلِ وتأنيثه ؛ لأن الفاعلَ غيرُ حقيقيِّ التأنيثِ ، وأما اختيار التذكيرِ والتأنيثِ في كلِّ موضعٍ فله أكثرُ من سببٍ منها :

١ ـ أنه قيل : إنه أخبر عن قومِ شعيبٍ بثلاثةِ أنواع من العذابِ كلها مؤنثـةُ الألفاظِ ، وهي : الرجفةُ ، والصيحةُ ، والظلة ، فناسب ذٰلك

التأنيثَ في أهل مدين ، جاء في (درة التنزيل) : « هل لتخصيصِ قصةِ شعيبٍ بـ : (أخذت) فائدةٌ ليست لها في قصةِ صالحٍ عليه السلام ؟

الجوابُ عن هٰذا الموضعِ هو أن يقال : إن ٱلله أخبر عن العذابِ الذي أهلك به قوم شعيبٍ عليه السلام بثلاثةِ ألفاظٍ منها : (الرجفة) في سورةِ الأعرافِ في قوله : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ﴾ [٩٠ ـ ٩٢] .

وذكر ذٰلك قبله في مكانٍ آخرَ .

ومنها (الصيحة) في سورةِ هودٍ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [٩٤ ـ ٩٥] .

ومنها : (الظلة) في سورةِ الشعراءِ في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [١٨٩] .

فلما اجتمعت ثلاثةُ أشياء مؤنثةُ الألفاظِ في العبارةِ عن العذابِ الذي أُهلكوا به غلب التأنيثُ في هٰذا المكان علىٰ المكان الذي لم تتوالَ فيه هٰذه المؤنثات ، فلذٰلك جاء في قصّةِ شعيبٍ : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ »[١] .

وهٰذا الكلامُ فيه نظرٌ .

---

(١) درة التنزيل (٢٢٤ ـ ٢٢٥) .

والصوابُ : أن مدين ذكر سبحانه عنهم أنهم أخذتهم الصَّيحةُ ، وأنهم أخذتهم الرجفةُ ، وأما عذاب يوم الظلةِ ، فإنه لم يُصبْ مدينَ ، وإنما أصاب أصحاب الأيكة ، قال تعالىٰ فيهم : ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء : ١٨٩] . وكلاهما أُرسل إليهما شعيبٌ ، هٰذا من ناحيةٍ .

ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن (الرجفة) أخذت قوم صالحٍ أيضاً ، قال تعالىٰ فيهم : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف : ٧٨] ، فهٰذا التعليلُ فيه نظرٌ .

٢ ـ إنه عبَّر عن عذابِ قومِ صالحٍ بالخزي ، فقال : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ [هود : ٦٦] .

والخزيُ مذكرٌ ، فناسب التذكيرُ في قومِ صالحٍ[1] .

قد تقول : إنه قال في قصةِ مدينَ : ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [٩٣] ، والعذاب مذكر .

فنقول : إنه ذكر العذابَ أيضاً في قصةِ ثمودَ ، فقال : ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [٦٤] ، وذكر الخزيَ علاوةً علىٰ ذٰلك فناسبَ التذكيرَ في قومِ صالحٍ .

٣ ـ إن التعقيبَ علىٰ قومِ صالحٍ وعقابهم أشد مما ذكره في قومِ شعيبٍ ، فقد قال في قوم صالح : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ

---

(١) انظر : كتابنا (معاني النحو) (٢ / ٤٨٥ ـ ٤٨٨) (باب الفاعل) .

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [٦٦ ـ ٦٨] .

وقال في قوم شعيبٍ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [٩٤ ـ ٩٥] . ومن النظر في النصين يتبين لنا ما يأتي :

أ ـ أنه قال في قومِ صالحٍ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ .

وقال في مدينَ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ .

والفاء تفيد التعقيبَ ؛ ذٰلك أنه قال علىٰ لسان نبيِّها صالحٍ : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [٦٤] .

فناسب التوعدُ بالعذابِ القريبِ ذكر الفاء التي تفيدُ الترتيبَ والتعقيبَ ، ثم إن نبيهم توعَّدهم بعد عقرِ الناقةِ بالعذاب بعد ثلاثةِ أيامٍ ، فلما انقضت الأيامُ الثلاثةُ حلَّ بهم العذابُ ، فناسب ذٰلك أيضاً ذكر الفاءِ التي تفيدُ الترتيبَ والتعقيبَ ، وليس الأمرُ كذٰلك في مدينَ ، فناسب فيها ذكر الواو .

ب ـ إنه ذكر الخزيَ في عقوبةِ قومِ صالحٍ ، فقال : ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۚ﴾ ولم يذكر ذٰلك في قوم شعيب .

ج ـ وذكر قوةَ اللهِ وعزتَه تعقيباً علىٰ هلاكِ قومِ صالحٍ ، فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ ، ولم يذكر مثل ذٰلك في قومِ شعيبٍ .

د ـ وقال في قومِ صالحٍ : ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ ﴾ ، ولم يقلْ مثل ذٰلك في قومِ شعيبٍ .

فاتضح أن التعقيبَ علىٰ قومِ صالحٍ كان أشد ، فجاء في عقوبتهم بلفظ التذكيرِ ، فقال : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ ؛ لأن المذكرَ أقوىٰ من المؤنثِ .

وقد ذكرنا في تذكيرِ وتأنيثِ لفظِ الملائكةِ أنه إذا كان ثمة أمرٌ أشد من آخر ؛ كأن يكونا موقفي عذابٍ أحدهما أشد من الآخر ، جيء بما هو أشدُّ بالتذكيرِ للدلالةِ علىٰ قوةِ الأمرِ وشدته ، فناسب التذكيرُ قومَ صالحٍ ، والتأنيثُ قومَ شعيبٍ .

٤ ـ وعلاوةً علىٰ كل ذٰلك ؛ فإن قصة قومِ شعيبٍ في هٰذه السورة أطول من قصة قومِ صالحٍ ، فإن قصة قومِ صالحٍ ثماني آياتٍ ، من الآية الحادية والستين إلىٰ الآيةِ الثامنةِ والستين .

وإن قصة مدينَ اثنتا عشرة آية من الآية الرابعة والثمانين إلىٰ الآية الخامسة والتسعين ، وإن كلمة (أخذت) أطول من (أخذ) فناسبت الكلمةُ الطويلةُ طول القصةِ من جهةٍ أخرىٰ .

٥ ـ وردت كلمة (العذاب) في قومِ صالحٍ في القرآنِ الكريمِ أكثر مما وردت في مدين ، فإنها وردت في قومِ صالحٍ سبع مراتٍ وهي :

قوله تعالىٰ : ﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

وقوله : ﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴾ [هود : ٦٤] .

وقوله : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٦] .

وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الشعراء : ١٥٨] .

وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ [فصلت : ١٧] .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : ٣٠] .

وقوله في عادٍ وثمودَ وفرعونَ : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر : ١٣] .

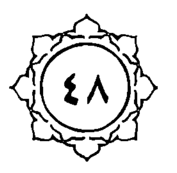
ووردت في أهلِ مدينَ مرةً واحدةً ، وذٰلك قوله تعالىٰ : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ [هود : ٩٣] .

وإن من معاني (الصيحة) في اللغةِ (العذاب)[1] ، فذكَّر الصيحةَ في قومِ صالحٍ ، إشارةً إلىٰ معنىٰ العذابِ ، ومناسبة لذكره الذي تكرر فيهم ، ولم يكن الأمر كذٰلك بالنسبة إلىٰ قومِ شعيبٍ أهل مدين ، فجاء بالفعل علىٰ لفظِ الصيحةِ وهو التأنيثُ .

٦ ـ وأما قوله تعالىٰ تعقيباً علىٰ قومِ شعيبٍ : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ فذٰلك لأن طبيعة العـذابِ واحدةٌ في القومين ، فكلاهما أهلك بالصيحةِ ، فشبّه هلاك مدين بهلاكِ ثمودَ ، وٱلله أعلمُ .

* * *

(١) انظر : لسان العرب (صيح) (٣ / ٣٥٣) .



قال تعالىٰ في سورةِ يوسفَ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] .

وقال في سورةِ الزخرفِ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ٣] .

سؤالٌ

لماذا ذكر الإنزال في آية يوسف والجعل في الزخرف ؟

الجوابُ

لقد ذكر الإنزال في آية يوسف ؛ لأنه ذكر ما يتعلق بالإنزال ، وهو قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ . . . لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [٣ ـ ٧] .

فقد ذكر أن ربه يقصُّ عليه أحسن القصص ، وأنه أوحىٰ إليه هـٰذا القرآن ، وأن هـٰذه القصةَ جوابٌ للسائلين عنها ، ومعنىٰ ذٰلك أنه أنزله إليه .

وسورةُ يوسفَ هي في عمومها سردٌ لقصةِ يوسفَ ؛ التي سُئل عنها رسولُ ٱلله ﷺ ، فقد ذكر في أسبابِ نزولها أن جماعةً من اليهودِ سألوا رسول ٱلله ﷺ أن يحدِّثهم بأمرِ يعقوبَ وولده ، وشأنِ يوسفَ وما انتهىٰ إليه .

وقيل : إن جماعة من اليهود وجهوا إلىٰ رسول ٱلله ﷺ من أهل المدينة مَن يسأله عن رجلٍ من الأنبياءِ كان بالشامِ ، أخرج ابنه إلىٰ مصر ، فبكىٰ عليه حتىٰ عمي . ولم يكن بمكةَ أحدٌ من أهلِ الكتابِ ، ولا من يعرف خبرَ الأنبياءِ فأنزل ٱلله سورةَ يوسفَ جملةً واحدةً كما في التوراةِ[1] .

وقد قال سبحانه في آخرِ القصةِ : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [١٠٢] .

فقد ذكر سبحانه أن هـٰذا من أنباءِ الغيبِ ، فدل ذٰلك علىٰ أن هـٰذا الكتابَ إنما هو إنزالٌ من عندِ ٱلله ؛ لأن قومه لا يعلمون عن هـٰذه القصةِ شيئاً ، فناسب ذٰلك ذكرُ الإنزالِ .

أما في آيةِ الزخرفِ فلم يذكر الإنزال ، وإنما ذكر الجعل ؛ لأنه لم يذكر ما يتعلق بالإنزال ، فقد قال بعدها : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [٤] ، ففي قوله : ﴿ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ و﴿ لَدَيْنَا ﴾ و﴿ لَعَلِىٌّ ﴾

---

(١) انظر : روح المعاني (١٢ / ١٧٠) ، فتح القدير (٣ / ٦) .

دلالةٌ علىٰ أن الكلام ليس علىٰ الإنزالِ ، وإنما علىٰ ما هو في الأعلىٰ ، فلم يذكرِ الإنزالَ .

ثم إنه تردد لفظُ الجعلِ في السورةِ عدة مراتٍ ، من نحو قوله : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [١٠] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [١٥] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ ﴾ [١٩] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ [٦٠] ، وغيره ، فناسب ذكرُ الجعلِ فيها .

هـٰذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرىٰ أن لفظ (الجعل) ورد في الزخرفِ أكثر مما في سورةِ يوسفَ ، فقد ورد في الزخرفِ (١١) إحدىٰ عشرة مرة ، وورد في سورة يوسف (٤) أربع مراتٍ .

وإن الإنزال ومشتقاته ورد في يوسف (٣) ثلاث مراتٍ ، وورد في الزخرف مرةً واحدةً ، فناسب ذكر الجعلِ في الزخرفِ والإنزالِ في يوسفَ من جهةٍ أخرىٰ .

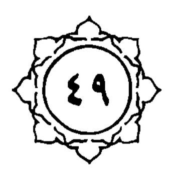
جاء في (ملاك التأويل) في سببِ الاختلافِ بين هاتين الآيتين : « أن آية سورةِ يوسفَ لما كانت توطئة لذكر قصصه عليه الصلاة والسلام . . . ومستوفياً ما كان أهلُ الكتابِ يظنون أنهم انفردوا بعلمه ، فأنزل ٱلله هـٰذه السورة موفيةً من ذٰلك أتمه ومعرِّفة من قصصه العجيب ، ومؤديةً أكمله وأعمه ، ولا أنسب عبارة من قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ ليعلمَ العربُ وأهلُ الكتابِ أن ذٰلك منزلٌ من عند ٱلله تعالىٰ . . .

وليقطعَ العربُ والجميعُ أن محمداً ﷺ لم يتلقَّ ذٰلك القصص من أحدٍ من العربِ إذ لم يكن عندهم من نبأ ، ولا رحل في تعرُّفه إلىٰ أحدٍ ، فكان قصصاً وآيةً مُعْلِماً بصحةِ رسالته ﷺ وعظيمِ تلك العنايةِ ، فالتعبيرُ بالإنزالِ هنا بيِّنٌ .

وأما آيةُ الزخرفِ ، فلم تُبْنَ علىٰ إخبارٍ ، بل أعقبت بآيِ الاعتبارِ واللطفِ والتنبيهِ والتذكارِ »(١) .

* * *

(١) ملاك التأويل (٢ / ٥٣٦ ـ ٥٣٧) .



يقول ٱلله سبحانه في سورة الرعد : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴾ [الرعد : ١٥] .

ويقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحج : ١٨] .

بإسنادِ الفعلِ (يسجد) إلىٰ : (مَن) التي هي للعاقلِ في الآيتين .

وقال في آيةٍ أخرىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : ٤٨ ـ ٤٩] ، بإسناد الفعل (يسجد) إلىٰ (ما) فما السببُ ؟

الجوابُ

قال تعالىٰ في آيةِ الرعدِ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ، والطَّوع والكرهُ من صفاتِ العقلاءِ ؛ إذ العاقلُ هو الذي يختار

الفعلَ طوعاً أو يُستكره عليه ، فناسب إسنادُ السجودِ إلىٰ (مَن) التي هي للعاقلِ .

وأما آيةُ الحجِّ فإنها في سياقِ العقلاءِ ، فقد قال قبلها : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآية .

فناسبَ إسنادُ السجودِ إلىٰ (مَن) أيضاً .

وأمـا آيةُ النحلِ فإنها ذُكرت في سياقِ العمومِ ، فقد جاء قبلَ الآيةِ قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآية ، فقد قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ وكلمةُ (شيء) تدلُّ علىٰ العمومِ من عاقلٍ وغيره ، هـٰذا من جهةٍ .

ومن جهةٍ أخرىٰ أنه قال في الآيةِ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ فبين الساجدين بقوله : (مِن دابة) ، وكلمةُ (دابة) عامةٌ ، واستعمالها في غيرِ العاقلِ هو الغالبُ ، فناسب إسنادُ الفعلِ إلىٰ (ما) من جهتين :

الأولىٰ : العمومُ في (شيء) .

والأخرىٰ : العموم وغلبة غير العاقل في (دابةٍ) .

و(ما) كما هو معلومٌ أعمُّ من (مَن) ، وما تدلُّ عليه أكثر مما تدل عليه (مَن) .

فإن (مَن) خاصةٌ بذواتِ العقلاءِ ، وأما (ما) فهي تدل علىٰ ذواتِ ما لا يعقل وعلىٰ صفاتِ العقلاءِ .

فالأول نحو قولك : (آكلُ ما تأكلُ وأركبُ ما تركبُ) ، قال تعالىٰ : ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون : ٣٣] .

والثاني : نحو قولك (ما زيد ؟) فتقول : تاجرٌ أو كاتبٌ ، ونحو قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنْهَا﴾ [الشمس : ٧] ، والذي سوّاها هو ٱلله ، وقوله : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء : ٣] ، فاتضح أن ما تدل عليه (ما) أعمُّ وأكثر مما تدل عليه (من) ، فذوات غيرِ العاقلِ أكثر من ذواتِ العقلاءِ ، فكيف إذا أُضيف إليهم صفاتُ العقلاءِ ؟

فناسب العمومُ كلمة (ما) في آيةِ النحلِ إضافةً إلىٰ ما بيَّن به (ما) من غير العاقل ، أو ما غلب فيه ذٰلك ، وهو قوله : (من دابةٍ) فناسب ذٰلك : (ما) أيضاً .

ومن اللطيفِ أن نذكر ههنا أن ٱلله سبحانه إذا أسندَ السجودَ إلىٰ (مَن) أتبعه بذكرِ غير العاقلِ ، وإذا أسنده إلىٰ (ما) أتبعه بذكرِ العاقلِ .

فقد قال في آيةِ الرعدِ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ثم عطف عليه بقوله : ﴿ وَظِلَٰلُهُم﴾ والظلالُ غير عاقلةٍ .

وقال في آيةِ الحجِّ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ، وعطف عليه الشمسَ والقمرَ والنجومَ ونحوها .

وقال في آيةِ النحلِ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ وعطف عليه

الملائكة ، حتىٰ إنه فعل ذٰلك مع فعلِ التسبيح في قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾ [النور : ٤١] ، فعطف (الطير) علىٰ : ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ .

وقد تقولُ : ولِمَ قال في آيةِ الحجِّ : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهم داخلون فيمن قبلهم ؟

والجوابُ من أكثرِ من وجهٍ :

فقد يكونُ ذٰلك من بابِ عطفِ الخاصِّ علىٰ العامِّ ، فإن قوله : ﴿ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لا يخصُّ الناسَ وحدهم ، بل قد يكونون من الناسِ أو من غيرهم من الجنِّ أو عباد ٱلله الآخرين الذين لا نعلمهم .

وعطفُ الخاصِّ علىٰ العامِّ غير عزيزٍ في اللغةِ ، قال تعالىٰ : ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

والصلاةُ الوسطىٰ من الصَّلواتِ ، وقال : ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمٰن : ٦٨] ، والنخلُ والرمانُ فاكهةٌ .

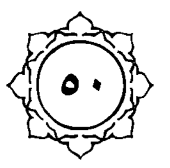
أو إن السُّجودَ الأول بمعنىٰ السجودِ العامِّ ، وهو التَّسخيرُ والانقيادُ لله والخضوع له ، وهٰذا لا يخصُّ الإنسان ، بل يعمُّ الجميعَ من عاقلٍ أو غيره ، وهو ليس عبادةً بالنسبة إلىٰ المكلفين ، وإن السجودَ الثاني سجودُ طاعةٍ واختيارٍ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ .

وقد يقوِّي هٰذا الاحتمال أنه ذكر قبل الآية أصنافاً من الناس ، مَن يسجد لله سجودَ طاعةٍ وكثيراً حقَّ عليه العذابُ ، وذٰلك قوله تعالىٰ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، فالمجوسُ والذين أشركوا وقسمٌ من الصابئين لا يسجدون لله سجودَ طاعةٍ واختيارٍ ، فقد يكون من بين هٰؤلاء مَن يعبد النارَ ، أو يعبد النجومَ ، أو غير ذٰلك من المعبوداتِ .

فناسبَ أن يقول : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر : ٢] .

سؤالٌ

لِمَ قُرئت (رُبَما) بتخفيفِ الباءِ ؟

الجوابُ

إن (ربما) قرئت بالتخفيفِ والتشديدِ ، وكلتا القراءتين سبعيةٌ متواترةٌ .

أما الإجابةُ عن التخفيفِ والتشديدِ فإن التخفيف قد يكون لتخفيفِ معنىٰ الحرفِ ، وإن التشديدَ آكدُ في معنىٰ الحرفِ ، وذٰلك نظيرُ نونِ التوكيدِ الثقيلةِ والخفيفة ، فإن الثقيلة آكد من الخفيفة ، ونظير (إنّ) الثقيلة والمخففة فإن الثقيلة آكد من المخففةِ ، و(ربّ) المثقلة آكد في معنىٰ الحرفِ من المخففةِ ، فإن تكرار الباءِ لزيادةِ المعنىٰ .

و(ربّ) تكونُ للتكثيرِ كقوله ﷺ : « ألا رُبّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة » ، وتكونُ للتقليلِ ، كقول الشاعر :

ألا ربَّ مـولـودٍ وليـس لـه أبٌ وذي ولـدٍ لـم يلـده أبـوان

إن الرغبة في الدخولِ في الإسلامِ التي ذكرتها الآية تختلف بحسب المواطن والأشخاص ، فقد تقوىٰ في مواطنٍ وتخفُّ في مواطنٍ ، وقد تقوىٰ عند أشخاصٍ وتخف عند آخرين ، فقد قيل : إن ذٰلك في الدنيا عندما رأوا الغلبة للمسلمين في بدر[1] أو غيرها .

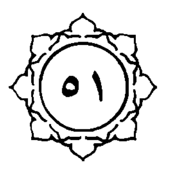
وفي مثل هٰذا الموطن يتمنىٰ قسمٌ من الناسِ أن لو كانوا مسلمين ؛ ليحصلوا علىٰ غنائمَ ، وتختلف هٰذه الرغبةُ باختلافِ الأشخاصِ ، فقد تكون قويةً عند أشخاصٍ ، وقد تكون خفيفةً عند آخرين .

وقيل : إن ذٰلك يكون في القيامةِ ، ولا شكَّ أن تلك الرغبة ستكون قويةً جدًّا ، وأنهم كانوا يتمنون أن لو كانوا مسلمين .

فالتمني في أن لو كانوا مسلمين يختلف قوةً وشدةً بحسب المواطن ، وبحسبِ الأشخاصِ ، فقد يكون قويًّا جدًّا في موطنٍ ما ، فذٰلك المعنىٰ يحققه التشديدُ ، وقد يكون أخفَّ في موطنٍ آخر فذٰلك ما يحققه التخفيفُ ، فاقتضىٰ ذٰلك القراءتين كلتيهما .

* * *

(١) انظر : روح المعاني (١٤ / ٤) .



قال تعالىٰ في سورةِ الحجرِ : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر : ٤٦] ، وقال في سورة (قٓ) : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ [قٓ : ٣٤] .

سؤالٌ

لماذا ذكر الأمن في آيةِ الحجرِ ، فقال : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ ولم يقل مثل ذٰلك في آية (قٓ) ؟

الجوابُ

هناك ما حسَّن ذكر الأمن في آيةِ الحجرِ ، ذٰلك أن الآية وردت في سياقِ قصةِ آدمَ وإبليسَ ، وانتهت بإخراجِ آدمَ من الجنةِ ، فكان من المناسب أن يؤمِّنهم ربنا من ذٰلك ، ومن كلِّ ما يُخشىٰ منه ، وأنه لا يصيبهم ما أصاب أباهم حين كان في الجنة ثم أُخرج منها .

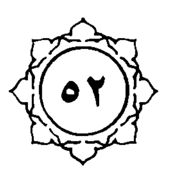
وقوّىٰ هٰذا المعنىٰ بقوله : ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [٤٨] تمكيناً لهٰذا المعنىٰ في نفوسهم ، وإرغاماً لإبليس وزيادةً في إغاظته ، وهو من لطيفِ المناسباتِ .

وليس السياقُ في (قٓ) في مثل ذٰلك ، وإنما ذُكر مجيءُ الموتِ ،

وفرارُ الإنسانِ منه ، فقال : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [١٩] .

فناسب ذكرُ الخلودِ الذي لا موت فيه ، والذي هو مطمعُ الإنسانِ وغايةُ رغبتِه ، فقال : ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ فكان كلُّ تعبيرٍ في مكانه أنسب .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ النحلِ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : ٦١] .

وقال في سورةِ الحجرِ : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ [الحجر : ٤ ـ ٥] .

سؤالٌ

لماذا ذكر تأخيرُ الأجلِ في النحلِ ، فقال : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

وقدَّم سبقَ الأجلِ في الحجرِ ، فقال : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ ؟

الجوابُ

قدَّم تأخيرَ الأجلِ في النحلِ لأكثر من مناسبةٍ :

فقد قال في الآيةِ : ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فناسبَ التأخيرُ التأخيرَ ؛ ولأن الناسَ يريدون تأخيرَ الأجلِ ، فقدَّم ما يريده الناس وما

يسعون إليه ؛ ولأنه قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ فقد يكون من أسبابِ الظلمِ الرغبةُ في البقاءِ ومدِّ الأجلِ ، فناسب ذٰلك تأخيرَ الأجلِ .

وأما تقديمُ الأجلِ في الحجرِ ، فله سببه أيضاً ؛ ذٰلك أنه قال بعدها : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [٦ ـ ٨] .

فقد طلبوا إنزالَ الملائكةِ ، ولو أنزلها إليهم لم يُمهلهم ولم يؤخِّرهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ فكأنهم أرادوا استعجالَ أجلِهم بطلبهم هٰذا ، فقال ربُّنا : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ ، فناسبَ كلُّ تعبيرٍ موضعَه الذي ورد فيه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ النحلِ : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٦٤] ، فذكر الهدىٰ والرحمةَ .

وقال فيها أيضاً : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢] ، فذكر الهدىٰ والبشرىٰ .

وقال في السورةِ نفسِها : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .

فذكر الهدىٰ والرَّحمةَ والبشرىٰ ، فجمع الأوصافَ كلَّها ، فلِمَ ذاك؟ ولِمَ خَصَّ كلَّ موطنٍ بما ذكر فيه من الهدىٰ والرَّحمةِ أو الهدىٰ والبُشرىٰ ؟

الجوابُ

إن ما ذكره في الآيةِ الرابعةِ والستين من قوله : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ إنما هو غرضٌ واحدٌ من أغراضِ إنزالِ الكتابِ ، فأغراضُ إنزالِ الكتابِ كثيرةٌ ، أهمها وأولها عبادةُ ربهم غير أنه ذكر غرضاً واحداً وهو تبيين الذي اختلفوا فيه ، فذكر الهدىٰ والرحمةَ .

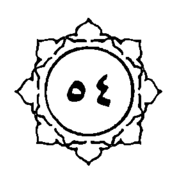
وكذٰلك ما ذكره في الآيةِ الثانيةِ بعد المئة ، وهو قوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ، فهو غرضٌ من أغراضِ إنزالِ الكتابِ ولم يذكرِ الأغراضَ كلها ، فذكر الهدىٰ والبُشرىٰ .

وأما الآية التاسعة والثمانون فقد ذكر فيها أن التنزيل تبيانٌ لكل شيءٍ، فلم يترك شيئاً إلا شمله فجمع الأوصافَ كلها ، فقال : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ ﴾ وهو المناسب لقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

أما الجوابُ عن السؤالِ الآخرِ ، وهو أنه لماذا خصَّ كلَّ موطنٍ بما ذكره من الهدىٰ والرحمة أو الهدىٰ والبشرىٰ ، فهو أنه ذكر بعد الآيةِ الرابعةِ والستين ـ وهي قوله : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ ـ أموراً من مظاهرِ الرحمةِ ، وذٰلك من نحو قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ . . . وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا . . . وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [٦٥ ـ ٦٧] فناسبَ ذكر الرحمةِ .

وإنه ذكر قبل الآيةِ الثانيةِ بعد المئة شيئاً من البشرىٰ ، وذٰلك من نحو قولِه تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٦ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [٩٦ ـ ٩٧] . فناسب ذكر البشرىٰ ، فناسب كلٌّ تعبيرٍ مكانَه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ النحلِ : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٦ ـ ٦٧] .

سؤالٌ

لماذا عدّ السَّكَرَ وهو الخمرُ من جملةِ النعمِ ؟

ولماذا ختمَ الآيـةَ بقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ مع أن الخمرَ تذهبُ بالعقلِ ؟

الجوابُ

١ ـ إن الآية نزلت قبل تحريمِ الخمرِ ، ومع ذٰلك فهي ليست كما ظنَّ السائلُ .

٢ ـ قيل : إن من معاني السَّكَر (الخَلّ) ولـٰكن المعنىٰ المشهور للسكر هو الخمرُ ، ونحن سننظر في النصِّ بحسبِ المعنىٰ المشهورِ .

٣ ـ إنه قسَّم ما يتخذه الإنسانُ من ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ علىٰ قسمين :

السَّكَر ولم يصفه بأنه حسنٌ .

والرزقُ الحسنُ ، فأخرج السَّكَر من الرزق الحسن ، مع أن الآية نزلت قبل تحريمِ الخمرِ ، وفي هـٰذا لفت للنظرِ إلىٰ أن الخمر ليست ممدوحةً .

٤ ـ إن الآية ليست خطاباً للمؤمنين ، وإنما هي لعمومِ الناسِ فيما يتخذونه من هـٰذه الثمراتِ ، وهـٰذا أمرٌ واقعٌ ، فإن الناس يتخذون من هـٰذه الثمراتِ ما ذكر .

٥ ـ لم تكن الآيةُ في تعدادِ النعمِ ، وإنما هي في ذكرِ ما هو حاصلٌ في واقعِ الأمرِ .

٦ ـ لم يقل في خاتمةِ الآيةِ (لعلكم تشكرون) لسببين :

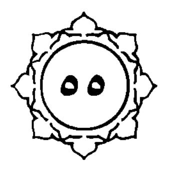
السببُ الأولُ : أنها ليست في سياقِ ذكرِ النِّعمِ .

والآخر : لئلا يشمل الشكرَ السكَرَ .

٧ ـ ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وكأن في هـٰذا إهابةً لترك السكرِ ؛ لأن السكَر يخامرُ العقلَ ويغطيه ، أما الآية فإنها لمن يعقل لا لمن يُذهب عقلَه السكرُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ النحلِ : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل : ٧٠] .

وقال في سورةِ الحجِّ : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴾ [الحج : ٥] .

سؤالٌ

لقد فصلت (لا) عن (كي) في الرسمِ في آيةِ النحلِ ، فكتبت (لكي لا) ، ووصلت بها في آية الحجِّ فكتبت (لكيلا) ، فما السبب ؟

الجوابُ

إن هـٰذا من شؤونِ رسمِ المصحفِ الذي لا يُقاس عليه مع أنه يجوز وصل (لا) بـ : (كي) ، ويجوز فصلها عنها في الرسمِ ، ومع ذٰلك فإنه ـ كما يبدو ـ أن وصل (لا) بكي وفصلها عنها في رسمِ المصحفِ له ارتباطٌ بالناحيةِ البيانيةِ ، وٱلله أعلمُ .

ذٰلك أن (من) في قوله : ﴿ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ ﴾ ونحوها تفيد ابتداءَ الغايةِ ، فقوله : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ ﴾ يفيد أن عدمَ العلمِ موصولٌ

بالعلمِ بلا فاصلٍ ، أي إن ذٰلك يكون بعد العلمِ مباشرةً .

وأما قوله : ﴿ بَعۡدِ عِلۡمٍ ﴾ فإن ذٰلك يحتمل أن يكون عدمُ العلمِ متَّصلاً بالعلمِ كالأولِ ، ويحتمل أن يكون بعده بمدَّةٍ .

ونظيره قولك : (فوقه) و(من فوقه) ، فإن قولك : (فوقه) يحتمل القربَ والبعدَ ، وأما (من فوقه) فيفيد الاتصالَ بما هو تحته ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا ﴾ [فصلت : ١٠] ، فقال : (من فوقها) أي بلا فاصلٍ .

وقال : ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا ﴾ [قٓ : ٦] ، فلم يأتِ بـ : (من) لأن الفوقيةَ بعيدةٌ .

ونحوه قوله : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ ﴾ [الملك : ١٩] ، فإنه لم يأت بـ : (من) لأنها كذٰلك ؛ أي إن الفوقيةَ غيرُ متصلةٍ[١] .

فلما كان عدمُ العلمِ متَّصلاً بالعلمِ في آية الحجِّ ؛ أي حصل بعده مباشرةً بلا فاصلٍ وصلت (لا) بـ : (كي) فرُسمت موصولةً بها (لكيلا) .

ولما لم يكن كذٰلك في آيةِ النحلِ فصلت (لا) عن (كي) فرُسمتا مفصولتين (لكي لا) .

وهٰذا الأمر لا يقتصر علىٰ هاتين الآيتين ، بل حيث وردت (كي) مع (لا) في المصحف رُسمتا ، بحسبِ هٰذا الأمرِ .

---

(١) انظر : معاني النحو (٢ / ٦٢٠) وما بعدها .

قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

ففصلت (لا) عن (كي) في الرسمِ ، وذٰلك أن الزواج بأزواجِ الأدعياءِ إنما يكون بعد الانفصالِ عن أزواجهن ، وبعد انقضاءِ العدَّةِ ففصلت في الخطِّ (لا) عن (كي) مجانسةً لذٰلك .

في حين رُسمت (لا) موصولةً بـ : (كي) في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] ؛ وذٰلك لأن الاتصالَ قائمٌ بأزواجه ، وبما ملكت يمينه .

ونحوه قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

إذ وصلت (كي) بـ : (لا) وذٰلك أن قوله : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾ معناه أنه جازاكم غمًّا موصولاً بغمٍّ ، غمٍّ الهزيمةِ وفواتِ

الغنيمةِ ، أو جازاكم غمًّا موصولاً بغمٍّ فعلتموه لرسول ٱلله ﷺ لمَّا عصيتم أمره[1] .

فلما كان الغمُّ الثاني موصولاً بالغمِّ الأول ، وصلت (كي) بـ : (لا) مجانسةً لوصلِ الغمَّينِ .

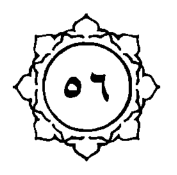
في حين رُسمت (كي) مفصولةً عن (لا) في قوله تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ ﴾ [الحشر : ٧] .

وذٰلك أنه لا يريدُ أن تبقىٰ الأموال دُولة بين الأغنياءِ لا تخرج عنهم ، وإنما أراد أن يشاركهم فيها الآخرون ، ففصلت (لا) عن (كي) ؛ مجانسةً لإرادة ألا تبقىٰ الأموالُ محصورةً في فئةٍ معينةٍ . وهٰذا من لطيفِ الرَّسمِ .

* * *

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود (٢ / ١٠٠) .



قال تعالىٰ في سورةِ النحلِ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٧٩] .

وقال في سورةِ المُلكِ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ النحلِ : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ بإسنادِ الإمساكِ إلىٰ الله ، وقال في آيةِ الملكِ : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ﴾ بإسنادِ الإمساكِ إلىٰ الرَّحمـٰنِ ؟

الجوابُ

من أوجهٍ :

١ ـ إن كلمة (الرَّحمـٰنِ) لم ترد في سورةِ النَّحلِ علىٰ طولها ، وهي (١٢٨) آية ، ووردت في سورة الملك أربعَ مراتٍ ، وهي ثلاثون آيةً .

٢ ـ ووردت كلمة (الله) في سورةِ النَّحلِ (٨٤) أربعاً وثمانين

مرةً ، ووردت في سورةِ الملكِ ثلاثَ مراتٍ .

٣ ـ لم يرد إسنادُ الفعلِ (سخر) إلىٰ الرَّحمنِ في القرآنِ الكريمِ ، وقد أسند إلىٰ ٱلله في مواضعَ عدةٍ ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [لقمان : ٢٠] ، ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ . . . ﴾ [الجاثية : ١٢] .

فمن حيث السِّمةُ التَّعبيريةُ للسُّورةِ والاستعمال القرآني للفعلِ (سخر) ناسب كلٌّ تعبيرٍ موضعَه .

٤ ـ وإن السِّياقَ في سورةِ الملكِ في ذكرِ مظاهرِ الرحمةِ ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [١٥] .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [٢٣] .

حتىٰ إنه إذا حذرهم فإنه يحذرهم بزوالِ النعمِ ، من نحو قوله تعالىٰ : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [٢١] ، وقوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [٣٠] .

ومن مظاهرِ ذٰلك أنه حين ذكَّرهم بالمكذبين ممن قبلهم ، قال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [١٨] ، ولم يقلْ : (فكيف كان عقاب) فذكر الإنكارَ عليهم ولم يذكرِ العقوبة ، كما قال في الرعدِ مثلاً (الآية : ٣٢) ، والإنكار أخف من العقوبة .

أما السِّياقُ في سورةِ النَّحلِ ففي التَّوحيدِ والنَّعيِ علىٰ الشِّركِ ،

وذلك نحو قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ . . . وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ . . . ﴾ [٧٣ ـ ٧٦] .

حتىٰ إنه ختم الآية بقولِهِ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قد تقول : ولـٰكن قال أيضاً في سياقِ آيةِ النَّحلِ قبل هـٰذهِ الآيةِ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [٧٨] .

فأقول : نعم ، ولـٰكنها وردت في سياقِ التوحيدِ والنَّعي علىٰ الشِّركِ ، ثم إنه قال في آيةِ النَّحلِ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ فأسند ذٰلك إلىٰ ٱلله .

وقال في الملكِ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ ﴾ فأسندَ ذٰلك إلىٰ الضَّمير (هو) الذي يعود علىٰ الرَّحمنِ قبله في قوله : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ ﴾ [٢٠] ، فأعادَ الضميرَ علىٰ الرَّحمنِ ، فناسب ذكر (الرَّحمن) في آية الملك ، وذكر (ٱلله) في آية النحل .

٥ ـ ذكر في آيةِ النحلِ أن الطير مسخَّراتٌ ، وهو من بابِ القهرِ والتَّذليلِ ، وليس من بابِ الاختيار ، فأسند ذٰلك إلىٰ ٱلله ، أما في آيةِ الملكِ ، فقد قال : إنهن ﴿ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ ﴾ [الملك : ١٩] بإسنادِ ذٰلك إلىٰ الطيرِ ، فهو من بابِ التمكينِ للطَّيرِ ، وهو أنسبُ بالرَّحمةِ .

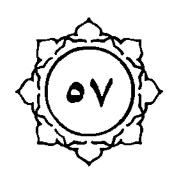
٦ ـ ذكر في سورةِ الملكِ شيئاً من الراحةِ للطيرِ ، وهو قوله :

﴿صَـٰٓفَّـٰتٍ﴾ وهو سكون الحركةِ ، فناسب ذٰلك ذكرُ الرحمةِ ، جاء في (ملاكِ التأويلِ) : « إن سورةَ الملكِ لما انطوت علىٰ ذكرِ حالين للطائر ، من صفِّهِ جناحيهِ وقبضهما ، وهما حالتان يستريح إليهما الطائرُ ، فتارة يصفُّ جناحيه كأن لا حركةَ به ، وتارة يقبضهما إلىٰ جنبيه حتىٰ يلزقهما بهما ، ثم يبسطهما ويقبضهما موالاة بسرعة كما يفعل السَّابح ، فناسب هـٰذا الإنعام منه تعالىٰ ورود اسمه الرَّحمـٰن .

أما آية النحلِ فلم يرد فيها ذكرُ هـٰذه الاستراحةِ فقيل هنا : ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وتناسب ذٰلك وامتنع عكس الواردِ بما تبيَّن ، وٱلله أعلمُ »[١] .

* * *

(١) ملاك التأويل (٢ / ٦١٨) .



قال تعالىٰ في سورة النَّحل: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٨١] .

سؤال

لماذا قال : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ ولم يقلْ : (والبردَ) ؟

الجواب

قال بعضهم : استدلَّ بذكر الحرِّ علىٰ البردِ ، فحذف ما يدلُّ عليه ، أي : والبرد[1] . وقد يكون اكتفىٰ بقوله سبحانه في أولِ السورةِ : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ [النحل : ٥][2] .

وهناك أمرٌ آخر حسَّن عدمَ ذكرِ وقاية البردِ هٰهنا ؛ ذٰلك أن المقام في ذكرِ الحرِّ لا البردِ ، فإن الإنسان يذهب إلىٰ الظلالِ ليقي نفسه الحرَّ ،

---

(١) انظر : شرح الأشموني (٣ / ١١٦) .

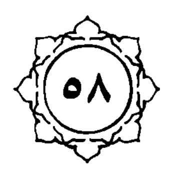
(٢) انظر : المغني (٢ / ٥٩١) .

ويذهب إلىٰ الجبالِ في الصيف ليحتمي من الحرِّ ، فكان المناسب ذكرَ الوقايةِ من الحرِّ .

وأما الوقاية من البردِ فقد ذكرها في أولِ السورةِ كما أشرنا ، وقال بعضهم : إن ذكرَ الحرِّ يُغني عن ذكرِ البردِ ، فإن القياس يكون بذكرِ درجاتِ الحرارةِ فإنها قد تتدنَّىٰ وقد ترتفعُ .

ولو كان الأمر كما ذكر هٰؤلاء لما كان داعٍ لذكرِ البردِ أصلاً .

* * *



قال تعالىٰ في موضعين من سورةِ الإسراءِ : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٤٩] ، ﴿ . . . وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٩٨] .

وقال في سورةِ (المؤمنون) : ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٢] .

وقال في سورةِ الصَّافاتِ : ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات : ٥٣] .

سؤالٌ

قال في آيتي الإسراءِ : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ ، وقال في آيةِ (المؤمنون) وآياتٍ أخرىٰ : ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ فما الفرقُ ؟

الجوابُ

إن الترابَ والعظامَ أدلُّ علىٰ البلىٰ من العظام والرفات ؛ ذٰلك أن (الرفات) هو الفتاتُ والحُطامُ من كلِّ شيءٍ ، يقال : (رفت الشيء :

كسره ودقه)[١] . فإذا بلىٰ الرفاتُ أصبح تراباً .

فبعث الترابِ والعظامِ أبعد في عقولِ المنكرين ، وأغرب من بعثِ العظامِ والرفاتِ ، وهو أدعىٰ للعجبِ والإنكارِ ، وهـٰذا يتضح من السياقِ الذي يرد فيه كلٌّ من التعبيرين .

ففي سياق آيتي الإسراءِ : ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ لم يذكر من قولهم غير هاتين الآيتين في الإنكارِ ، فلم يقولوا بعدهما ولا قبلهما شيئاً يتعلق بإنكارِ البعثِ أو العجبِ منه .

وأما إذا ذكر الترابُ والعظامُ ، فإنه يذكر من إنكارهم واستبعادهم للبعث ما لم يذكره في العظامِ والرفاتِ .

من ذٰلك مثلاً ما جاء في سورة (المؤمنون) ، وهو قوله : ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [٣٥ ـ ٣٨] .

فأنت ترىٰ من العجبِ والاستبعادِ ما هو ظاهرٌ ، مما لم يذكر نحوه في آيتي الإسراءِ ، ونحو ذٰلك قولُه في السورةِ نفسِها : ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [٨٢ ـ ٨٣] .

ونحوه ما جاء في سورةِ الصَّافاتِ : ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى

---

(١) انظر : لسان العرب (رفت) .

قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [٥١ ـ ٥٣] .

ونحوه ما جاء في سورةِ الواقعةِ : ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [٤٧ ـ ٤٨] .

فيضيفون إلىٰ عجبِهم وإنكارِهم أن يُبعثوا مع آبائِهم الأولين .

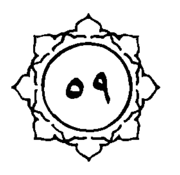
فكيف يبعث آباؤهم الأولون معهم وقد أصابهم من البلىٰ ما أصابهم ؟ وهـٰذا شأنُ كلِّ ما ذكر فيه الترابُ والعظامُ .

ويدلُّك علىٰ هـٰذا أيضاً أنه حيث ذكر التُّراب والعظام ، أضافوا إلىٰ ذٰلك ذكر الموتِ فيقولون : ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ وذٰلك للزِّيادةِ في العجبِ والاستبعادِ . فالميتُ لا يحيا وإن كان حديثَ الموتِ ، فكيف إذا أصبح تراباً وعظاماً ؟ !

ولم يذكر مثل ذٰلك مع العظامِ والرُّفاتِ ، فذكرُ الموتِ مع التُّرابِ والعظامِ فيه جانبان :

جانبُ الزيادةِ في العجبِ والاستبعادِ ، وجانب الإفاضةِ والتَّوسُّعِ في دواعي الاستبعادِ والإنكارِ ، مما يدعو إلىٰ الإفاضةِ في ذكرِ الإنكارِ والعجبِ ، بخلافِ ذكرِ العظامِ والرفاتِ ، وعدمِ ذكرِ الموتِ ، فإنه أوجزُ في الكلامِ ، وأوجز في ذكرِ العجبِ والاستبعادِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ مريمَ : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٥] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وكان الأنسبُ فيما يبدو أن يقال : عذابٌ من الجبارِ أو المنتقمِ ونحو ذٰلك ؟

الجواب

١ ـ لقد قال قبل هٰذه الآيةِ : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [٤٤] فذكر اسمَ الرَّحمنِ .

٢ ـ إن اسم الرَّحمنِ تكرر في هٰذه السورةِ (١٦) ستَّ عشرةَ مرةً ، وهي أكثر سورة في القرآن تردد فيها هٰذا الاسم .

٣ ـ إن جو السورةِ يشيعُ فيه الرحمةُ من أولها إلىٰ آخرها ، فهي تبدأ بالرحمةِ : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [٢] .

وتنتهي بالرحمةِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [٩٦] .

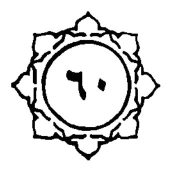
ويفيضُ جوُّها بالرحمةِ : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ ﴾ [٢١] .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [٥٠] .

٤ ـ ثم إن إبراهيمَ قال بعد ذلك لأبيه : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [٤٧] .

فلا يحسنُ أن يقول : أستغفر لك الجبار أو المنتقم ونحو ذلك ؛ لأن المغفرة تُطلبُ من الرحمنِ ، فناسب ذكر (الرحمـٰن) من كل وجهٍ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ مريمَ : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم : ٦١ ـ ٦٣] .

سؤالٌ

في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾ .

١ ـ لماذا جاء بهٰذا التعبيرِ ، ولم يقل مثلاً : (إن وعدَ الرحمنِ كان مأتيًا) أو : (إن الرحمـٰن كان وعده مأتيًا) ؟

٢ ـ لماذا قال : (مأتياً) ولم يقل : (آتياً) ؟

الجوابُ

١ ـ الجوابُ عن السؤال الأول من أوجهٍ :

أ ـ إن الهاء في (إنه) يحتمل أن تعود علىٰ الرحمنِ ، ويحتمل أن تكون ضميرَ الشأنِ ، وهو ـ أي ضميرُ الشأنِ ـ **يفيد تفخيمَ الوعدِ وتعظيمه** .

ب ـ لو قال : (إن الرحمـٰن كان وعده **مأتيًا**) **لفات تفخيمُ** الوعدِ

وتعظيمه مع أن الوعدَ له شأنٌ كبيرٌ وظاهرٌ في السياقِ .

ج ـ ولو قال : (إن الرحمـٰن كان وعده مأتيًّا) لفات التفخيمُ ؛ أي تفخيم الوعدِ من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ يكون الإخبار عن الوعدِ لا عن الرَّحمـٰنِ ، مع أن الكلامَ علىٰ الرَّحمن أيضاً كما هو علىٰ الوعدِ ، فقد ذكر أن الرَّحمـٰن وعد عبادَه ، وأن وعده مأتيٌّ ، وأنه يورث الجنة لعبادِهِ الأتقياءِ ، فقال : ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ٦٣] .

وعلىٰ هـٰذا فقد ذكر الرَّحمن ، وأعاد عليه الضَّميرَ أربع مراتٍ في الأقل .

الضَّميرُ في ﴿عِبَادَهُۥ﴾ ، والضَّمير في ﴿وَعْدُهُۥ﴾ ، والضَّمير المستتر في ﴿نُورِثُ﴾ ، والضَّمير في ﴿عِبَادِنَا﴾ ، مما يدل علىٰ أهميته في السِّياقِ .

د ـ في التَّعبيرِ الذي جاء في الآية تفخيمٌ وتعظيمٌ للرحمـٰن وللوعد كليهما ، وكل منهما له أهميته في السياقِ كما هو ظاهر ، ولو قال أي تعبيرٍ آخر لم يجمع المعنيين معاً .

٢ ـ أما بالنِّسبةِ إلىٰ السُّؤالِ الثاني فإن قوله : ﴿مَأْتِيًّا﴾ هو المناسبُ من أكثر من وجهٍ .

فإن المقصودَ بالوعدِ في الآية إنما هو الجنةُ ، قال تعالىٰ : ﴿ جَنَّٰتِ

عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ وهم يأتونها[١] . قال تعالىٰ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر : ٧٣] ، فهي مأتيةٌ .

هٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن هٰذا التعبيرَ يُفيد قوةَ الوعدِ ، وأنه ناجزٌ لا محالة ، فنحن نأتيه وهو يأتينا ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، أي : يمضون إلىٰ قدرِ الله الذي قدَّره عليهم .

وقــال : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] أي : يأتيهم ، فالقدرُ يأتي ويؤتىٰ ، كما قال الشاعر :

فهــنَّ المنــايــا أيّ وادٍ سلكتــه   عليهـا طـريقـي أو علـيَّ طـريقهـا

وذٰلك أدلُّ علىٰ إنجازِ الوعدِ ؛ لأنه آتٍ ومأتيٌّ .

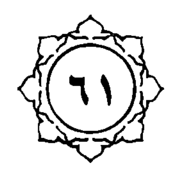
هٰذا مع أنه قيل أيضاً : إن (مأتي) هنا بمعنىٰ اسم الفاعلِ ، أي آتٍ[٢] ؛ كما قيل في جملةٍ من أسماءِ المفعولِ نحو : (حجاباً مستوراً) .

والأولىٰ عدم إخراج الصِّيغةِ عن الدَّلالةِ المشهورةِ لها ، ما دام يمكن حملها عليها .

* * *

---

(١) انظر : البحر المحيط (٧ / ٢٧٩) .
(٢) انظر : البحر المحيط (٧ / ٢٧٩) ، وانظر : شرح الرضي علىٰ الكافية (٣ / ٤١٥) .



قال تعالىٰ في سورةِ طه: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾ [طه: ٣٨ ـ ٤٠] .

وقال في سورةِ القصصِ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القصص: ٧ ـ ١٣] .

سؤال

لماذا قال في سورةِ طٰه : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ ، وقال في سورةِ القصصِ : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ ؟

الجواب

١ ـ الكلامُ في القصصِ مبنيٌّ علىٰ الجمعِ ، وفي طه علىٰ الإفرادِ .

فقد قال في القصصِ : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ ، وقال في طٰه : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ ، فقوله في القصصِ : ﴿ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ جمعٌ بخلاف ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ ، فكان قوله : ﴿ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ ﴾ أنسب بالجمع ، وقوله : ﴿ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ أنسب بالمفرد .

٢ ـ قال في القصصِ : ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ ، وامرأة الرجل أهله في اللغة[1] والقرآن . قال تعالىٰ في امرأةِ سيدنا إبراهيمَ بعد أن قالت : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [هود : ٧٢ ـ ٧٣] .

وقالت امرأةُ العزيزِ تكلِّم زوجها بخصوصِ سيدنا يوسفَ : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ [يوسف : ٢٥] .

---

(١) انظر : لسان العرب (أهل) .

وامرأةُ فرعونَ أهلُ بيته ، فناسب أن تدلَّ أختُه أهلَ بيتِ فرعونَ علىٰ أهلِ بيتٍ يكفلونه ، وليس في طه مثل ذٰلك .

٣ ـ قال تعالىٰ في القصصِ : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ والراجحُ عند علماءِ اللغةِ أن أصلَ كلمةِ (آل) هو (أهل) أبدلت الهاء همزةً ثم ألفاً ؛ لاجتماع همزتين الأولىٰ مفتوحةٌ والثانية ساكنةٌ ، فإذا صغرت (آل) قيل : (أهيل)(١) .

فناسب ذكر الآل ذكر (أهل بيت) في القصصِ .

فآل فرعونَ هم أهله وخاصته ، فكان المناسب القول : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ ﴾ ، وليس في طه مثلُ ذٰلك .

٤ ـ إن هـٰذا الجانب من القصةِ في سورةِ القصصِ أطول مما في طه ، كما هو واضح ، فهي في طه ثلاثُ آياتٍ ، وفي القصصِ سبعُ آياتٍ ، وقوله : ﴿ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ أطول من قوله : ﴿ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ ، فناسب الإيجازُ الإيجازَ ، والتبسطُ التبسطَ .

٥ ـ هـٰذا ومن جهةٍ أخرىٰ أن كلمةَ (أهل) وردت في القصصِ أكثر مما في طـٰه .

وأن كلمة (من) وردت في طه أكثر مما في القصص .

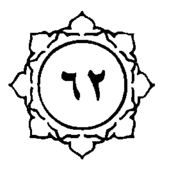
فقد وردت كلمة (أهل) في القصص سبعَ مراتٍ ، وفي طه أربعَ

---

(١) انظر : لسان العرب (أهل) .

مراتٍ ، وأن كلمة (من) وردت في طـٰه (٢٤) أربعاً وعشرين مرةً ، ووردت في القصص (٢٠) عشرين مرةً ، فناسبَ كلَّ تعبيرٍ موضعه من أكثر من وجهٍ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ طـٰه : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٧٧] .

وقال في الشُّعراءِ : ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء : ٥٢] .

وقال في سورةِ الدُّخانِ : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : ٢٣ ـ ٢٤] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ الدُّخانِ : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ فذكر اللَّيلَ ، ولم يقل مثل ذٰلك في آيتي الشُّعراءِ وطـٰه ؟

الجوابُ

إن الإسراءَ لا يكون إلا في اللَّيلِ سواء ذكر الليلَ أم لم يذكره ، فاللَّيلُ هنا هو ظرفٌ مؤكدٌ ، ولما أمر ربُّنا موسىٰ بالإسراءِ في آيتي الشُّعراءِ وطه ، علم أن ذٰلك إنما هو في اللَّيلِ .

وأما ذكرُ اللَّيل في الدُّخانِ وعدمُ ذكرِه في الآيتين الأخريينِ ، فلأكثر من سببٍ :

منها : أنه ذكر في الدخانِ من هـٰذا الأمرِ ما لم يذكره في الآيتين الأخريين ، وبيَّن فيها ما لم يُبينه في الموطنين الآخرين ، فقد ذكرَ في الدخانِ :

١ ـ أنهم متبعون .

٢ ـ وأن جندَ فرعونَ مغرقون .

ولم يذكر هـٰذين الأمرينِ في الموضعينِ الآخرين ، وإنما ذكر أحدهما في كلِّ موضعٍ ، فقد ذكر في الشعراءِ أنهم متبعون ، ولم يقلْ له : إنهم جندٌ مغرقون ، وإنما ذكر أنه لما تراءىٰ الجمعان قال أصحاب موسىٰ : إنّا لمدركون ، فنفىٰ موسىٰ ذٰلك بقوله : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

ولم يقلْ له في طه : إنهم متبعون ، وإنما ذكر له النجاة ، فقد قال له : ﴿ فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ [طه : ٧٧] ثم إنه ذكر بعد ذٰلك ما حصل .

ففصَّل وبيَّن في الدخانِ في تبليغه لموسىٰ ، ما لم يُفصله ويُبينه في الموطنين الآخرين .

ومنها : أن قوله : ﴿ لَيۡلًا ﴾ ليس لمطلقِ التوكيدِ ، وإنما هو يدل علىٰ ليلةٍ بعينها ، فقولك : (جئت ليلاً) تريد فيه ليل ليلتك ، أو ليلةً بعينها[1] .

---

(١) انظر : سيبويه (١ / ١١٥) ، الأصول (١ / ٢٢٠) ، الأمالي الشجرية (٢ / ٢٥١) ، وانظر : معاني النحو (٢ / ٦١٢ ـ ٦١٣) .

ولو قلت : (جئت في ليلٍ) لم يتعيَّن ذاك .

فقوله : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ يريد فيه تعيين الليلةِ التي أمر بالإسراءِ فيها .

وأما قوله : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ فإنه أمر بالإسراء من دون تعيين الوقتِ ، فكان في الدخانِ : تعيين وقت الإسراءِ ، وبيان أنهم متبعون ، وأن جندَ فرعونَ جندٌ مغرقون ، فناسب تبيينُ الوقتِ ما ذكره من التبيينِ في التبليغِ .

وناسبَ عدمُ التبيينِ للوقت تحديداً عدم التبيينِ لشيءٍ مما سيقع في الموضعين الآخرين .

ومما زاد ذٰلك حُسناً في الدخانِ إضافةً إلىٰ ما ذكرنا أنه قال في أول السورة : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [٣ ـ ٦] .

فذكر الليلةَ التي يُفرق فيها كلُّ أمرٍ حكيمٍ ، فناسب ذٰلك ذكر الليل الذي فرّق فيها بين جندِ فرعونَ ، وأصحابِ موسىٰ فأغرق فرعونَ وجندَه ، ونجّىٰ موسىٰ ومَن معه .

وهو من لطيفِ التناسبِ يراعيه القرآنُ فيما تحسن فيه المراعاة .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ طه : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣٠ ـ ١٣١] .

وقال في سورةِ قٓ : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [قٓ : ٣٩ ـ ٤٠] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ (طٰه) : ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ ، وقال في آيةِ (قٓ) : ﴿ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ ؟

٢ ـ ولماذا قال في طه : ﴿ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾ ، بإطلاقِ التَّسبيحِ ، وقال في قٓ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ بتخصيصِ التسبيحِ لله وذٰلك بذكرِ ضميرِه ؟

الجوابُ

١ ـ بالنِّسبة إلىٰ السؤالِ الأول ، فإن قوله في آيةِ طه : ﴿ وَقَبْلَ

غُرُوبِهَا﴾ تنصيصٌ علىٰ غروبِ الشَّمسِ ، وذٰلك بذكرِ الضَّميرِ الذي يعود عليها .

وأما قوله في قٓ : ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ فإنه يدلُّ علىٰ غروبِ الشَّمسِ بدلالةِ السِّياقِ ، قيل : علىٰ تقديرِ ضميرٍ ، أو علىٰ قولِ مَن يرىٰ أن (أل) عوضٌ عن الضميرِ ، وذكروا منه قوله تعالىٰ : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات : ٤١] أي : مأواه أو المأوىٰ له(١) .

فكأنه أخرج (الغروب) في (قٓ) مخرجَ العمومِ ، وإن أريد به الخصوصُ . وكلٌّ تعبيرٍ مناسبٌ للسياقِ الذي ورد فيه .

فإن السِّياقَ في (طٰه) أُخرج مخرجَ الخصوصِ ، كما أنه ألصقَ بالشَّمسِ ، أما السِّياق في (قٓ) فقد أُخرج مخرجَ العمومِ وهو أبعدُ عن الشمسِ .

أما من حيث العمومِ في (قٓ) فمن ذٰلك ما ذكرناه في قوله : ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ من أنه أخرج مخرج العمومِ ، وإن كان الكلامُ علىٰ الخصوصِ تقديراً .

ومنه أنه قال في طه : ﴿وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ﴾ وقال في قٓ : ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ .

وآناءُ الليلِ ساعاته ، ولاشكَّ أن (الليل) أعمُّ من ساعاتِ الليلِ ،

---

(١) انظر : الأشموني (١ / ١٩٥ ـ ١٩٦) .

فكان الكلام في (قٓ) أُخرج مخرجَ العمومِ .

وأما من حيث إن السياقَ في طه ألصقُ بالشمسِ ، فإنه قال فيها : ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ له علاقةٌ بالشَّمسِ ، شروقها وزوالها عند الظَّهيرةِ وغروبها ، ويكفي ذكرُ (النهار) الذي آيته الشَّمسُ .

وأما في (قٓ) فلم يذكر أمراً يتعلق بالشَّمسِ ولا بالنَّهارِ ، فقد قال : ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ وهـٰذا ليس له علاقةٌ بالشَّمسِ ولا بالنهارِ .

فكان ذكرُ ضميرِ الشَّمسِ في (طه) أنسب مع السِّياقِ من ناحيتين :

ناحيةِ الخصوصِ ، وناحيةِ ماله علاقة بالشَّمسِ وهو أطرافُ النهارِ .

هـٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن السياقَ في طـٰه بعد ذٰلك عن الدُّنيا والحياةِ الدنيا والرزقِ ، فقد قال بعد الآيةِ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [١٣١] .

وأما السِّياقُ في (قٓ) بعد الآيةِ ففي الآخرةِ ، فقد قال بعد الآيةِ : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [٤١ ـ ٤٤] .

فناسب فيها ذكر الغروبِ علىٰ العمومِ ، وهو غروبُ الشمسِ وذهابها وزوالها ، وغروبُ كلِّ شيءٍ مما يتعلق بأمرِ الدنيا من الكواكبِ والنجومِ والشَّمسِ والقمرِ ، فإخراجه مخرجَ العمومِ أنسبُ في (قٓ) .

هـٰذا وإن ذكر الآخرةِ بعد قوله : ﴿ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ من لطيفِ المناسباتِ ، ذٰلك أن الآخرةَ ستكونُ أدبارَ السجودِ حيثُ لا يكون في الدنيا رجلٌ يقول : (لا إلـٰه إلا ٱلله) وليس فيها رجلٌ ساجدٌ .

فكان كلُّ تعبيرٍ في مكانهِ هو المناسبُ من كلِّ ناحيةٍ ، إضافةً إلىٰ فاصلةِ الآيةِ .

٢ ـ وأما الجوابُ عن السؤالِ الثاني ، فإنه أمَره في (قٓ) بنوعين من التسبيح :

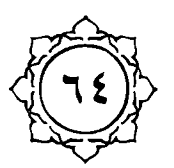
١ ـ التسبيحُ بحمدِ ربِّه .

٢ ـ تسبيحُ ٱلله نفسَه ، وذٰلك أنه قال : ﴿ فَسَبِّحْهُ ﴾ أي : فسبِّح ٱلله ، أو فسبِّح ربَّك ، كما قال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١ ـ ٤٢] ، ذٰلك أنه قال فيها : ﴿ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ ومعلومٌ أنه بعد السجودِ يُسَنُّ للمصلي أن يُسبح ٱلله ، فيقول : (سبحان ٱلله) ثلاثاً وثلاثين مرة .

فناسب تسبيحُ ٱلله أدبارَ السجودِ .

ولما لم يرد في (طـٰه) نحو ذٰلك أطلق التسبيحَ فقال : ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ وحذف المتعلق ليشمل عمومَ التسبيحِ ، وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الحجِّ : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

سؤال

١ ـ لماذا قال : ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ فذكر وصفَ الضمور ؟

٢ ـ ولماذا وصف الفجَّ بالعمقِ ، ولم يصفه بالبعدِ مع أن معنىٰ (عميق) هنا (بعيد) ؟

الجواب

١ ـ أما بالنسبةِ إلىٰ السؤال الأول فإن معنىٰ الضَّامر هو المهزولُ الضَّعيفُ المنهوك من السَّفرِ ، وذكرُ هـٰذا الوصف هنا مناسبٌ من أكثر من جهةٍ .

منها : أنها تأتي من كل فجٍّ عميقٍ ؛ أي بعيدٍ ، والبعدُ هو الذي يُضمر الإبل والمطايا ، ولم يقل : (من كل فجٍّ) فحسب ؛ لأن ذٰلك يشمل البعيدَ والقريبَ فلا يناسب ذكر الضمورِ .

ومنها : أنه قال : ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ ، وكلمة (فج) في الأصل هو

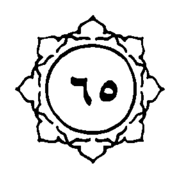
الطريق في الجبلِ ، وهو أنسب بالضُّمور من كلمةِ الطريقِ أو السَّبيلِ أو نحوه ؛ لأن السير في الجبلِ أدعىٰ إلىٰ التَّعب والمَشقة والضُّمور .

٢ ـ وأما اختيار كلمةِ (عميقٍ) علىٰ (بعيدٍ) فهو أنسب هنا من أكثر من جهةٍ أيضاً .

منها : أن اختيار كلمةِ (عميقٍ) علىٰ (بعيدٍ) أنسب مع ذكر الضُّمور ، ذٰلك أن العمق نقيض العلو والارتفاع ، وأن الصعود في السير أشق وأصعب من السير في الطريق المستوي ، فهو يضمر المطايا وينهكها .

ومنها : أن الحجَّ رفعةٌ وعلوٌّ في المنزلةِ عند ٱلله ؛ لأنه مدعاةٌ إلىٰ مغفرةِ الذنوبِ ، فالسالك في طريقِ الحجِّ آخذٌ بالارتفاعِ ، وسالك سبيلَ الصُّعودِ فناسبَ الوصفُ بالعمقِ من أكثر من جهةٍ ، وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة النُّور: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ [النور : ٣٥] .

سؤالٌ

لماذا أخبر ٱلله عن نفسه بأنه نورٌ ، ولم يُخبر بأنه ضياءٌ ، مع أن الضياء أقوىٰ من النورِ ، بدليلِ قولِه تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس : ٥] ؟

الجواب

ليس صحيحاً ما ذُكر من أنَّ الضياءَ أقوىٰ من النورِ ؛ لأن الضِّياء هو نورٌ ، غير أن النور أعمُّ من الضِّياءِ ، فكلُّ ضياءٍ هو نورٌ كما هو مُقررٌ في اللغة ، إن الضياء حالةٌ من حالاتِ النورِ وهو أخصُّ منه ، وذٰلك أن النورَ درجاتٌ بعضها أقوىٰ من بعضٍ ، فإذا كان في حالةٍ قويةٍ فهو ضياءٌ[١] ، فالضياء نور وليس غيره .

---

(١) انظر : تفسير الرازي (٦ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩) .

وقيل : هما مترادفان ، جاء في (لسان العرب) : « النور : الضياء ، والنور : ضد الظلمة »[١] . وجاء في (تاج العروس) : « النُّور بالضمِّ الضوء أيًّا كان أو شعاعه وسطوعه . . .

وقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ وتخصيصُ الشمسِ بالضوءِ والقمرِ بالنورِ ، من حيث إن الضوء أخصُّ من النور »[٢] .

وجاء في (المفردات) للراغبِ الأصفهانيِّ : « النور : الضوء المنتشر الذي يُعين علىٰ الإبصار »[٣] .

وبهـٰذا يتضح أن النور أعمُّ من الضياءِ ، وأن الضِّياءَ قسمٌ منه أو حالةٌ من حالاته .

وقد قابل ربنا الظلماتِ بالنورِ ، قال : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام : ١] .

وقال : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وسمىٰ الهدىٰ نوراً والضلالَ ظلماتٍ ، قال تعالىٰ : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم : ١] .

---

(١) لسان العرب (نور) ، وانظر : المصباح المنير (النور) .
(٢) تاج العروس (نور) .
(٣) المفردات (النور) .

وقال : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

وسمىٰ القرآن نوراً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٧٤] .

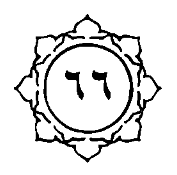
وقال : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن : ٨] .

فسمّىٰ ٱلله نفسه نوراً لا ضياءً ؛ لأن الضياء حالةٌ من حالاتِ النور ، وهناك حالاتٌ من حالاتِ النور لا نعلمها ، ٱلله يعلمها هي أعلىٰ من الضياءِ ، وحالات من النورِ غير الضِّياء ، فلا يصح قصر المطلق علىٰ جزئية .

فٱلله هو النور المطلق ، « والنور المطلق هو ٱلله سبحانه »[1] . وٱلله أعلمُ .

* * *

(١) تفسير الرازي (٨ / ٣٨٣) .



قال تعالىٰ في سورةِ الأنبياءِ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٤٨ ـ ٤٩] .

وقال في سورةِ المائدةِ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال في سورةِ الأنعامِ : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ [الأنعام : ٩١] .

سؤالٌ

لماذا وصف التَّوراة بأنها (ضياء) في آية الأنبياء ، ووصفها بأنها (نورٌ) في آيتي المائدةِ والأنعامِ ؟

الجوابُ

إن النور أعمُّ من الضياءِ ، والضياء حالةٌ من حالاتِ النورِ وهو أخصُّ منه كما ذكرنا في النقطة السابقة .

وقد ذكر في آيةِ الأنبياءِ أنه : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ ، وهم أخصُّ ممن ذُكر في الآيتين الأخريين .

فقد قال في آيةِ المائدةِ : ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ أي : لليهود ، والمتقون أخص من اليهودِ وهم جزءٌ منهم .

وقال في آيةِ الأنعامِ : ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [الأنعام : ٩١] . فجعله للناسِ ، وهم أعمُّ من المتقين المذكورين في آيةِ الأنبياءِ ، والمتقون جزءٌ منهم .

فجعل النورَ الذي هو أعمُّ من الضياءِ للذين هم أعمُّ ؛ وهم اليهود والناس ، وجعل الضياءَ الذي هو أخصُّ للذين هم أخصُّ ؛ وهم المتقون الذين يخشون ربهم ، وهم من الساعةِ مشفقون .

فناسب العمومُ العمومَ ، والخصوصُ الخصوصَ .

ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن الضياء إنما هو الساطعُ من النورِ ، أو هو التامُّ منه[1] .

وإن المتقين إنما هم جماعةٌ ساطعةٌ من بين عمومِ المؤمنين أو الناسِ ، وحالهم أتمُّ وأكملُ ، فناسب بين سطوع المتقين وسطوع النور وهو الضياء ، فالمتقون من بين عمومِ المؤمنين كالضياءِ من النورِ .

جاء في (الكشاف) في قولِه تعالىٰ : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ

---

(١) انظر : تفسير الرازي (٦ / ٢٠٩) .

نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : ١٧] .

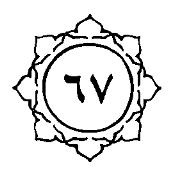
« النار : جوهرٌ لطيفٌ مضيءٌ حارٌّ محرقٌ ، والنورُ ضوءُها ، وضوء كلِّ نيّرٍ ، وهو نقيضُ الظلمةِ . . . والإضاءة فرطُ الإنارةِ ، ومصداقُ ذٰلك قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ . . .

فإن قلت : هلا قيل : (ذهب ٱلله بضوئهم) لقوله : ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ ﴾ ؟

قلت : ذكر النور أبلغ ؛ لأن الضَّوء فيه دَلالةٌ علىٰ الزيادةِ فلو قيل : (ذهب ٱلله بضوئهم) لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمىٰ نوراً ، والغرضُ إزالةُ النورِ عنهم رأساً وطمسُه أصلاً . ألا ترىٰ كيف ذكر عقيبه : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ ﴾ ، والظُّلمةُ عبارةٌ عن عدمِ النورِ وانطماسه ، وكيف جمعها ، وكيف نكَّرها ، وكيف أتبعها ، ما يدل علىٰ أنها ظلمةٌ مبهمةٌ لا يتراءىٰ فيها شبحان ، وهو قوله : ﴿ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ »[1] .

* * *

(١) الكشاف (١ / ١٥١ ـ ١٥٤) .



قال تعالىٰ في سورةِ العنكبوتِ في سيدنا نوحٍ عليه السلام : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٥] .

وفي آيات أخرىٰ سماها الفلك ، فقال : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ [الأعراف : ٦٤] .

وقال : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الشعراء : ١١٩] ، فما السبب ؟

الجوابُ

السَّفينة هي الفلك ، غير أن العرب استعملتِ السَّفينة خاصةً بالمفردةِ المؤنثةِ .

أما الفلك فقد استعملتها عامةً ، فقد استعملتها للواحدِ والاثنينِ والجمعِ ، واستعملتها مذكرةً ومؤنثةً ، فتقول للواحد : (فُلك) تؤنثه وتذكِّره ، وتقول للجمع أيضاً : (فُلك) ، وكذا استعمله القرآن .

قال تعالىٰ : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [المؤمنون : ٢٧] ،

فجعلها مفردةً مؤنثةً ، فقد قال : ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ .

وقال : ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ . . ﴾ وقال : ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود : ٤٢] ، وهي في ذلك كله مؤنثةٌ .

وقال : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء : ١١٩] .

وقال : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الصافات : ١٣٩ ـ ١٤٠] .

فقال : ﴿ ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فجعلها مفردةً مُذكرةً .

وقال : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر : ١٢] ، فقال : ﴿ مَوَاخِرَ﴾ فجعلها جمعاً .

وقال : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس : ٢٢] ، فقال : ﴿وَجَرَيْنَ﴾ فجمع وأنَّث[1] .

وقد تقول : ولِمَ استعملها القرآن مُذكرةً أحياناً ، ومُؤنثةً أحياناً أخرىٰ ؟

فنقول : إنه استعملها مذكرةً في حالةِ ملئِها بالحمل ، ولم يستعملها في غير ذٰلك ؛ ذٰلك لأن التذكير أقوىٰ من التأنيث ، وأن المذكر أقوىٰ من المؤنث ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الشعراء : ١١٩] .

---

(١) انظر : لسان العرب (فلك) .

وقال : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [يسٓ : ٤١] ، و : (المشحون) معناه : المملوء ، « والشحن ملؤك السفينة وإتمامُك جهازها كله ، شحن السفينة يشحنها شحناً : ملأها »[١] ، فشحنُ السفينةِ ملؤها كلها .

ولذا عندما ذكر سيدنا يونس ، فقال : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : ١٣٩ ـ ١٤٢] .

أفاد أنه أُلقي في البحرِ ؛ لأن السَّفينة كانت ملأىٰ ولابد أن يخفَّف من حملها ، فوقعتِ القرعةُ عليه فالتقمه الحوت ، فلما ذكر أثقل حالاتها حملاً ذكرها مذكَّرةً .

قد تقول : ولٰكنه ذكر حالاتٍ أخرىٰ تدلُّ علىٰ الملء ، ولم يستعملها مذكّرةً ، وذٰلك قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود : ٤٠] ، وقوله : ﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٧] .

فنقول : إن الآيتين لا تدلان علىٰ الملء ، فهو لم يقل إنها مملوءة ، فقد أمره في آيةِ هودٍ أن يحمل من كل زوجين اثنين ، وأهله

(١) لسان العرب (شحن) .

ومَن آمن ، وقد ذكر أنهم قلَّة ، فقال : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

ومما يدلُّ علىٰ أن في السفينةِ متسعاً ، أنه نادىٰ ابنه فقال : ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾ [هود : ٤٢] .

وأما آية (المؤمنون) فقد ذكر أنه أمره أن يسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهله ، ولم يذكر مَن آمن ، فلم يصرِّح بالملء بخلافِ التَّصريحِ بالشَّحنِ ، وقيل : إن تأنيثها وتذكيرها كأنه « يذهب بها إذا كانت واحدةً إلىٰ المركبِ فيذكّر ، وإلىٰ السَّفينة فيؤنث »[1] .

ثم نأتي إلىٰ السَّفينةِ والفلكِ في السؤالِ فنقول :

إن السَّفينة من السَّفْن وهو القَشْر ، ومعنىٰ (سفن الشيء) قشره ، وسميت السَّفينة ؛ لأنها تسفن وجه الماء أي : تقشره[2] .

وأما الفُلك فكأنها سُميت بذٰلك ؛ لأنها تركب الفَلَك ، ومن معاني (الفَلَك) بفتحِ الفاءِ واللام : موجَ البحرِ إذا ماجَ واضطربَ ، ومن معانيه : الماء الذي حركته الريحُ ، وفَلَك البحرِ : موجه المستديرُ المترددُ[3] ، فكأنها سُميت بذٰلك لما كانت تركب الموج ، وما ذكرناه في معنىٰ الفلكِ .

وقد بيّنا أن (الفُلك) أعمُّ من السفينةِ في الاستعمالِ اللغوي ؛ لأنه

---

(١) لسان العرب (فلك) .

(٢) انظر : لسان العرب (سفن) .

(٣) انظر : لسان العرب (فلك) .

يذكّر ويؤنث ، ويكون للواحد وغيره بخلافِ السفينةِ ، فإنها مفردةٌ مؤنثةٌ ، فهي مختصةٌ .

وقد استعمل القرآن السَّفينةَ في مقامِ التَّخصيصِ فقط مناسبةً لمعناها اللُّغوي ، وبخلاف الفلك فقد استعملها عامةً وخاصةً .

١ ـ فقد استعمل السَّفينة في المملوكةِ دون غيرِها ، فقد قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ [الكهف : ٧١] ، وهـٰذه السَّفينة كانت لمساكينَ يعملون في البحر ، كما جاء في السورة [الكهف : ٧١] .

ثم قال : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] ، أي : يأخذها غصباً من مالكِها .

فالسفينة في القرآنِ لم تُستعمل إلا في سفينةِ نوحٍ ، وهي المذكورة في آيةِ العنكبوتِ ، وفي هـٰذه السفن المذكورة في سورةِ الكهفِ ، وهي مملوكة لمساكين أو لآخرين في ذٰلك العهدِ .

وهي علىٰ أيةِ حالٍ خاصةٌ بمالك أو خاصةٌ بعهد معين هو عهد الملك المغتصب ، أو هي فلك نوح .

وأما الفلك فهي قد تكون خاصةً كما في فلكِ نوحٍ ، وقد تكون مطلقةً تصلح لجميعِ الأزمنةِ ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان : ٣١] .

وقوله : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الجاثية : ١٢] .

وقوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم : ٤٦] .

٢ ـ ومِن استعمالها مختصة أنه ذكر معها الأصحابَ في قصةِ نوحٍ ، فقال : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ وكلمةُ الأصحابِ قد تأتي بمعنىٰ المالكين ، وإن لم تكن كذٰلك في قصةِ نوحٍ ، وإنما هي علىٰ تقدير (في) أي : وأصحابه في السَّفينة ، مثل : ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ﴾ أو تكون الإضافة لأدنىٰ ملابسةٍ ، فناسب ذكرُ الأصحابِ استعمالها مملوكةً في السِّياقاتِ الأخرىٰ ، فكانت في كل استعمالاتها مملوكةً أو كالمملوكةِ .

٣ ـ ومن لطيفِ الاستعمالِ أنه مع ذكرِ السَّفينةِ التي هي خاصةٌ ، ذكر المدة التي لبثها سيدنا نوح وخصصها ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤] ، فذكره وخصصه مع ذكرِ السفينةِ التي هي أخصُّ من الفلكِ .

٤ ـ ثم إنه قال في السفينةِ المذكورةِ في آيةِ العنكبوتِ ، وهي سفينةُ نوحٍ : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : جعل السفينة هٰذه آية ، ولو ذكر مكانها الفلك لم يدل نصًّا علىٰ أن المقصود به الفلك الذي صنعه نوحٌ ، بل يحتمل أن المقصود به عمومُ الفلكِ الذي يركبه الناس ، وقد ذكره ربنا ، وذكر أنه آيةٌ من آياته في أكثر من موضعٍ ، فقال : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وقال : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم : ٤٦] فذكر أنه من آياته .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [لقمان : ٣١] .

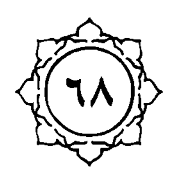
وقال : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٢ ـ ١٣] .

فلو ذكر الفلكَ أيضاً في آيةِ العنكبوتِ لاحتمل أن المقصود نحو ما ذكره في آياتٍ أخرىٰ في الفلكِ ، ولم ينصَّ علىٰ أنه سفينةُ نوحٍ .

فاستعمل السَّفينة التي هي ـ خاصةٌ في اللُّغةِ ـ خاصَّةٌ بسفينةِ نوحٍ أو خاصَّةٌ بمالكين أو خاصَّةٌ بعهد معين ، وخصَّص معها مدة لبثِ نوحٍ ، وخصصها بأنها آيةٌ للعالمين .

فما أَجَلَّ هـٰذا التَّناسب وألطفه !

* * *



قال تعالىٰ في سورة العنكبوت : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

وقال : ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك : ١٥] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ العنكبوتِ : ﴿ سِيرُوا۟ ﴾ ، وقال في سورةِ الملكِ : ﴿ فَٱمْشُوا۟ ﴾ ، وما الفرق بين السيرِ والمشي ؟

الجوابُ

يقال : (سار القومُ) « إذا امتد بهم السيرُ في جهةٍ ما توجهوا إليها »[١] ، أما المشي فلانتقال الخطىٰ وإن كانت قليلةً .

والسير قد يكون للسفرِ وللتجارةِ والضربِ في الأرض ، وللاعتبار والاتعاظ ، ولغير ذٰلك علىٰ أن يكون ممتدًّا .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ

(١) لسان العرب (سير) .

ﵟٱلطُّورِ نَارٗاۖﵞ [القصص : ٢٩] ، وهو سير ممتدٌّ للعودةِ إلىٰ مصرَ .

وقال : ﵟسِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَﵞ [سبأ : ١٨] ، وهو سيرٌ متطاولٌ ممتدٌّ يستغرقُ ليالي وأياماً ، كما ذكر ربنا .

وقال : ﵟأَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآﵞ [الحج : ٤٦] ، وهو سيرٌ للعبرةِ .

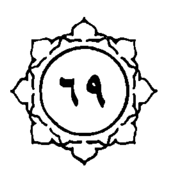
ونحوه قوله : ﵟقُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚﵞ [العنكبوت : ٢٠] .

أما المشي فيكون علىٰ الأرجلِ وإن كان قليلاً ، قال تعالىٰ : ﵟوَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖﵞ [لقمان : ١٨] .

وقال : ﵟفَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖﵞ [القصص : ٢٥] .

وقال : ﵟإِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗﵞ [الفرقان : ٢٠] .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ العنكبوتِ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [العنكبوت : ٢٢] .

وقال في سورةِ الشورىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورىٰ : ٣١] .

سؤالٌ

لماذا قال في سورةِ العنكبوتِ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ فذكر السماءَ إضافةً إلىٰ الأرضِ .

وقال في سورة الشورىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فذكر الأرضَ ، ولم يذكرِ السماءَ ؟

الجوابُ

إن التهديدَ والتوعدَ في العنكبوت أشدُّ وأعمُّ ، وذٰلك أن السياق في العنكبوت يختلف عمّا في الشورىٰ من أكثر من جهةٍ منها :

١ ـ أن الكلام في العنكبوتِ إنما هو علىٰ الكفارِ وتهديدهم ، وتوعدهم ، وذٰلك من مثل قوله : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا

وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ [١٧] .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٢٣] .

وأما الكلام في الشُّورىٰ فأكثره في المؤمنين أو هو عامٌّ ، وذٰلك من مثلِ قولِهِ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِۗ ﴾ [٢٣] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [٢٥] .

وقوله : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [٢٧] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ ﴾ [٢٨] فناسب أن يكون التهديدُ في العنكبوتِ أشدَّ .

٢ ـ إن جوَّ سورةِ العنكبوتِ إنما هو في ذكرِ الأممِ الكافرةِ ، وموقفهم من رسلهم وعقوباتهم ، فقد ذكر قومَ نوحٍ ، وقومَ إبراهيمَ ، وقومَ لوطٍ ، وذكر مدينَ وعاداً وثمودَ ، وقارونَ وفرعونَ وهامانَ ، فناسب ذٰلك شدةَ التَّهديدِ والتَّحذيرِ فيها ، ولم يذكر شيئاً من ذٰلك في الشُّورىٰ .

٣ ـ قال تعالىٰ قبل آيةِ العنكبوتِ هـٰذه : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٢٠] .

وقال في الشُّورىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا

مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ [٢٩] .

فقال في آيةِ العنكبوتِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ، وقال في الشورىٰ : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ .

فذكر قدرته في العنكبوتِ بما هو أعمُّ وأشملُ ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ، وذكر شيئاً من مظاهرِ قدرته في الشورىٰ ، فقال : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ فذكر جمع مَن في السمواتِ والأرضِ .

وهٰذا ولا شكَّ جزءٌ من قدرته ، فهو يدخل في قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ .

فذكر في العنكبوتِ ما هو أعمُّ مما في الشورىٰ ، وهو السَّماء والأرض ، وذكر جزءاً من ذٰلك في الشُّورىٰ ، وهو الأرض ، فناسب العمومُ العمومَ ، والتَّخصيصُ التَّخصيصَ .

٤ ـ ذكر في الشُّورىٰ من مظاهرِ مغفرتهِ وعفوهِ ولطفِه ما لم يذكره في العنكبوت ، فقد قال في الشُّورىٰ : ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ [٥] ، وهٰذا من رحمةِ ٱلله بمن في الأرضِ ، فقد جعلَ الملائكةَ يستغفرون لهم .

وقال : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [٥] .

وقال : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [١٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [٢٣] ، وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [٢٥] ، وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [٢٨] ، وقال : ﴿ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [٣٠] ، وقال أيضاً :

﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ [٣٤] ، ولم يرد في العنكبوتِ ذكرٌ للمغفرةِ أو العفوِ ، وإنما ذُكرَ التهديدُ والتوعدُ من مثل قوله : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [٤] ، وقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٥٣] ، وقوله : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [٦٦] .

فناسب التوعدُ الشديدُ والتهديدُ ما في العنكبوت .

جاء في (ملاك التأويل) : « للسائل أن يسأل عن زيادةِ الواردِ في سورةِ العنكبوتِ ، من قوله : ﴿ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ولم يرد ذٰلك في سورةِ الشورىٰ .

والجواب عنه ـ وٱلله أعلمُ ـ أنه لما تقدَّم قبلها قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ ﴾ وهـٰذا من أشدِّ الوعيدِ ، إذ حاصله أنه لا يفوته سبحانه أحد ، وأنه لا مهرب منه إلا إليه ، ناسب هـٰذا قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ كما قال : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، إلىٰ ما ورد من هـٰذا وذٰلك تناسبٌ بيِّنٌ .

ولما لم يرد في سورةِ الشورىٰ من أولها إلىٰ الآية مثل هـٰذا الوعيدِ الشديدِ ، ولا كان فيها ما يستدعي هـٰذا التعميمَ والاستيفاءَ الوعيدي ، وردت الآية مناسبةً لذٰلك ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

ولـم يكـنِ التعميمُ هنا ليناسب ، فورد كل علىٰ ما يجب وٱلله سبحانه أعلم »[١] .

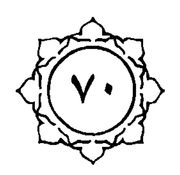
٥ ـ إن كلمـة (الأرض) وردت فـي الشـورىٰ أكثـر ممـا فـي العنكبوت ، فقـد وردت في العنكبـوت خمـسَ مـراتٍ ، ووردت في الشورىٰ عشرَ مراتٍ ، فناسب الاقتصارُ علىٰ ذكرِ الأرضِ في الشورىٰ من هٰذه الجهةِ .

٦ ـ إن كلمة السماءِ وردت في العنكبوتِ ثلاثَ مراتٍ ، ولم ترد في الشورىٰ ، فناسب ذكر السماء إضافةً إلىٰ الأرضِ في العنكبوت من جهةٍ أخرىٰ ، فناسب كلَّ تعبيرٍ موضعه الذي ورد فيه من كلِّ جهةٍ ، وٱلله أعلمُ .

* * *

---

(١) ملاك التأويل (٢ / ٧٦٧) .



قال تعالىٰ في سورةِ العنكبوتِ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ ﴾ [العنكبوت : ٣٨ ـ ٤٠] .

وقال في سورةِ غافر : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٤] .

سؤالٌ

لماذا قدَّم (قارون) علىٰ فرعون وهامان في العنكبوتِ ، وأخَّره عنهما في غافر ؟

الجوابُ

إنه قال عن قوم ثمودَ : إنهم كانوا مستبصرين ، وكذٰلك قارون كان مُستبصراً أيضاً ؛ لأنه كان من قومِ موسىٰ ، فبغىٰ عليهم ، كما قال ربُّنا

عنه [القصص : ٧٦] فناسب ذكره بعد ثمودَ ، وأما فرعون وهامان فلم يذكر ذٰلك عنهما .

ثم إن تقديم (قارون) في سورةِ العنكبوتِ مناسبٌ لما ورد في السورةِ من بسط الرزقِ ، فقد قال : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٦٢] .

وقارون بُسط له في رزقِهِ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص : ٧٦] .

وقد ذكر العقوبات في سورةِ العنكبوتِ مُرتبة بحسبِ المذكورين ، فقد قال : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ ﴾ .

فقوله : ﴿ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ يعني عاداً ، وقوله : ﴿ مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ يعني ثمودَ ، وقوله : ﴿ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ يعني قارونَ ، وقوله : ﴿ مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ ﴾ يعني فرعونَ .

وأما في سورة غافر ، فقد قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ والإرسالُ كان إلىٰ فرعونَ أولاً .

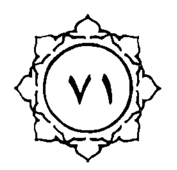
ثم إن السياقَ في الكلام علىٰ فرعونَ أولاً ، فقد قال : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ . . . وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ . . . قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [٢٦ وما بعدها] . وغير ذٰلك ، فناسب تقديمُ فرعونَ في غافر .

ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن المذكور آخراً في هـٰذين الموضعين ، لم يرد بشأنه شيءٌ في السورةِ .

فآخر مَن ذُكر في العنكبوت (هامان) ولم يرد بشأنه شيءٌ في السورةِ ، وأما مَن قبله فقد ذكر عقوبته .

وآخر مَن ذُكر في غافر : (قارون) ولم يرد بشأنه شيءٌ في السورةِ ، وأما (هامان) فقد ورد له ذكرٌ في غافر ، فقد قال فيه : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴾ [٣٦] .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأحزابِ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢٦ ـ ٢٧] .

سؤالٌ

لماذا قدَّم الفريق في قوله : ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وأخَّره في قوله : ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ ؟

الجوابُ

أما تقديم الفريق علىٰ ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ فإنه هو المناسبُ ، ذٰلك أن هٰذه من أندرِ حالاتِ القتلِ وأغربِها ، وأنها تستدعي التقديمَ للاهتمامِ ، ذٰلك أن المرء يقاتل إما دفاعاً عن نفسِه ، أو عن أهلِه وذريته ، أو عن مالِه ، أو عن دارِه ، أو عن أرضِه .

إذ إن كلَّ واحدٍ من هٰذه الأمورِ يستوجب الدفاعَ عنه والقتالَ دونه ، فكيف إذا اجتمعت كلها ؟

وهٰؤلاء لم يقاتلوا مع موجب أحوالِ الدِّفاعِ كلها ، مع أنهم بأيديهم سلاحهم ، وقد كانوا في حصونِهم ، بل نزلوا مستسلمين للقتلِ ملقين سلاحهم ، ولم يدافعوا عن شيءٍ من كلِّ ذٰلك ، وقد كانوا ستمئة مقاتلٍ .

وهٰذا يُبين مقدار الرعبِ الذي قُذف في قلوبهم .

فتخيل أن رجلاً يُنادي علىٰ رجلٍ في حصنه معه سلاحه ، فيقول له : انزل إليّ ، وألق سلاحك ، فأنا سأقتلك ، وأسبي أهلك وذريتك ، وآخذ دارك ومالك وأرضك ، أفترىٰ أنه فاعلٌ ذٰلك وهو مقتولٌ لا محالةَ ؟

فهٰذا هو حال هٰؤلاءِ من بني قريظة .

فاقتضىٰ ذٰلك تقديم هٰذا الفريق ؛ لغرابة حالِه .

أما الفريقُ المأسورُ فلا يستدعي تقديمه وهي حالةٌ غير مُستغربةٍ ، ولا تستدعي الاهتمامَ ، فإنهم أطفالٌ ونساءٌ وليس فيهم مقاتلٌ .

فلا شكَّ أن أسرهم سهلٌ وميسورٌ فلا يقتضي التقديم .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

سؤالٌ

لماذا ذكر الجبال بعدَ الأرضِ وهي جزءٌ منها ؟

الجوابُ

إن هـٰذا من بابِ عطفِ الخاصِّ علىٰ العامِّ ، وذلك لعظم خلقها ، فهي أعظم ما في الأرض .

وهـٰذا النوع من العطفِ غير عزيزٍ في اللغة ، فإنه يعطف الخاصَّ علىٰ العامِّ لأهمية المعطوفِ ، وذلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ، فعطف الصلاة الوسطىٰ علىٰ الصلواتِ ؛ وذلك لأهميةِ الحفاظِ علىٰ هـٰذهِ الصلاةِ .

ونحو قوله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٨] ، فعطف جبريلَ

وميكالَ ، وهما من الملائكة ؛ وذٰلك لتعظيمِ منزلتِهما عند ٱلله .

ثم إن الجبال ليست خاصةً بالأرضِ ، فهي موجودة في قسمٍ من الأجرامِ السماويةِ ، وعلىٰ هـٰذا فإن ذكرها أفاد ما لم يُفِده ذكر الأرضِ ، فربما عرض ٱلله الأمانة علىٰ السمواتِ والأرضِ وعلىٰ الجبالِ ، أينما كانت سواء كانت في الأرض أم في غيرها .

ثم إن ذكرها بعد ذكرِ الأرضِ فيه إشارةٌ إلىٰ أمرٍ آخرَ لطيفٍ ، ذٰلك أن الجبال إنما هي رواسٍ للأرض ؛ لئلا تميد بنا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء : ٣١] ، ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : ١٥] .

وهـٰذه الأمانةُ كالجبالِ رواسٍ للإنسانِ تثبته ؛ لئلا تميد به الأهواءُ وتعصف به الشهواتُ ، بل هي تُثبته في الدنيا والآخرةِ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ، وهي أدومُ من الأرضِ والجبالِ ؛ بل هي أدوم من السمـٰوات ، فإن الأرض ستزولُ والجبالُ ستُنسف ، والسمـٰوات ستُبدل ، أما هـٰذه الأمانة فإنها باقيةٌ تثبته في الحياةِ الدنيا ، وتُثبته في الآخرةِ ، وتُثبته علىٰ الصراطِ ؛ لئلا يسقط في جهنم .

فذكر الجبال ههنا بعد ذكرِ الأرضِ من لطيفِ المناسباتِ .

* * *



قال تعالىٰ في الآيةِ السادسةِ والثلاثين من سورةِ سبأ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ : ٣٦] .

وقال في الآيةِ التاسعةِ والثلاثين من السُّورة نفسِها : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ : ٣٩] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا قال في الآيةِ السادسةِ والثلاثين : ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ولم يقل : (له) ، وقال في الآيةِ التاسعةِ والثلاثين : ﴿ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ ؟

٢ ـ ولماذا قال في الآيةِ التاسعةِ والثلاثين : ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ولم يقل مثل ذٰلك في الآية السادسة والثلاثين ؟

الجوابُ

١ ـ بالنسبةِ إلىٰ السؤال الأول ، فقد ذكر ربُّنا في السُّورةِ قسمين من العباد :

قسماً بسط ٱلله لهم الرِّزقَ ، ولم يقدره لهم .

وقسماً بسط ٱلله لهم الرِّزق ، ثم قدره لهم ؛ أي ضيَّقه .

فذكرَ كلَّ آيةٍ لمناسبةِ كلِّ قسمٍ ، وإليك إيضاحُ ذٰلك :

لقد ذكر من الذين بسط لهم الرزقُ ، ولم يضيِّق عليهم نبي ٱلله داود ، ونبيه سليمان ، فقد ذكر أن ٱلله آتاهما فضلاً ، ولم يُضيق عليهما ، فهما ملكان عظيمانِ في بني إسرائيلَ ، إلىٰ أن توفاهما ٱلله .

ومن الذين بسط لهم رزقهمْ ، ولم يقدره لهم المذكورون في قوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [٣٤ ـ ٣٥] .

وهـٰؤلاء ممن بسط لهم الرِّزقَ ، فقد ذكر أنهم مُترفون ، والمُترفُ مبسوطٌ له في رزقِه ، وذكر أنهم قالوا : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾ ، فهـٰؤلاء ممن بسط لهم في رزقهم ، ولم يذكرْ أنه ضيَّقه عليهم ، وقد قال بعدَ هـٰذه الآيةِ :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فذكر أن ربَّك يبسط الرزقَ ويقدر ، ولـٰكن لم يذكر أنه يقدر لمن بسطَ له ، فقد يقدر له أو لغيره .

وقد ذكر في السُّورةِ أيضاً قوماً بسطَ لهم في رزقِهم ، ثم ضيَّقه عليهم ، وهو ما ذكره عن سبأ ، فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [١٥] ، وهـٰذا زمنُ البسطِ .

ثم قال : ﴿ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ [١٦ ـ ١٧] ، فضيَّق عليهم بعدَ البسطِ .

فالأولون بسطَ لهم في رزقِهم ، ولم يقدره لهم .

والآخرون بسط لهم في رزقهم ، ثم قدره لهم .

فناسبت كلُّ آيةٍ قسماً من المذكورين في السُّورةِ .

٢ ـ وأما ذكر ﴿ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ في الآيةِ الثانيةِ دون الأولىٰ ، فقد قيل : إن الآيةَ الأولىٰ في الكافرين ، وإن الآيةَ الثانيةَ في المؤمنين ، وقوله : ﴿ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ مُشعرٌ بذٰلك .

جاء في (البرهان في متشابه القرآن) أنه : « لم يذكر مع الأول : (من عباده) لأن المرادَ بهم الكفارُ ، وذكر مع الثاني ؛ لأنهم المؤمنون »[١] .

وجاء في (البحر المحيط) : « ومعنىٰ ﴿ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ أي : يأتي بالخُلف والعوضِ منه ، وكانت لفظة ﴿ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ مشعرةً بالمؤمنين ، وكذٰلك الخطاب في : ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم﴾ يقصد هنا رزقُ المؤمنين »[٢] .

هٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن خاتمة كلِّ آيةٍ من الآيتين تبين مناسبةَ كلِّ تعبيرٍ لما ورد فيه .

---

(١) البرهان (٢٧٩) .

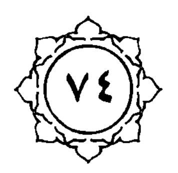
(٢) البحر المحيط (٧ / ٢٨٦) .

فإنه ختم الآيةَ الأولىٰ بالكلام علىٰ الناسِ ، فقال : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ والناس عموم .

وختم الآيةَ الثانية بالمؤمنين المنفقين ، فقال : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ وهم أخصُّ من الأولين فإنهم جزءٌ من الناس .

فأطلق في الآيةِ الأولىٰ مناسبةً للعمومِ ، فلم يقل : (من عباده) ، وخصصَ في الآيةِ الثانيةِ مناسبةً للخصوصِ ، فقال : ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾ ، فناسب العمومُ العمومَ والخصوصُ الخصوصَ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة فاطر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر : ٢٩] .

سؤالٌ

لماذا جاء بالفعلِ ﴿ يَتْلُونَ ﴾ مُضارعاً ، وبالفعلين : ﴿ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ و ﴿ أَنفَقُواْ ﴾ ماضيين ؟ وما سرُّ هٰذا الترتيبِ ؟

الجوابُ

جاء بالفعل ﴿ يَتْلُونَ ﴾ مضارعاً للدلالةِ علىٰ الاستمرارِ والتجددِ ؛ لأنه أكثر مما بعده ، فإن الذين يُقيمون الصلاةَ لابد أن يتلوا فيها كتابَ ٱلله ، ولا تكون صلاةٌ من غيرِ تلاوةٍ .

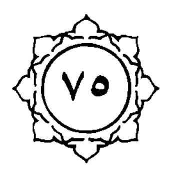
والتلاوةُ قد تكون في غيرِ الصلاةِ ، ولا يُشترط فيها ما يُشترط في الصلاةِ من وضوءٍ أو استقبالِ قبلةٍ أو أوقاتٍ معينةٍ ، فهي أكثرُ من الصلاةِ ، وهي لاشكَّ أكثرُ من الإنفاقِ .

فجاء بالفعل فيها مضارعاً للدَّلالةِ علىٰ الاستمرارِ والتَّجددِ .

وأما سرُّ الترتيبِ في الآيةِ فهو واضحٌ ، فإنه تدرجٌ من الكثرةِ إلىٰ القلَّةِ ، فالتلاوةُ أكثرُ من الصلاةِ كما ذكرنا ، والصلاةُ أكثرُ من الإنفاقِ ، فإن الصَّلاةَ المكتوبةَ فقط خمسةُ أوقاتٍ في اليومِ والليلةِ عدا السننِ ، والإنفاقُ لا يكون بهـٰذه الكثرةِ .

هـٰذا إضافةً إلىٰ أن الصَّلاةَ فرضٌ علىٰ الجميعِ بخلاف الإنفاق ، فإن كثيراً من المصلين لا يجب عليهم إنفاقٌ ، وإنما قد تُصرف إليهم بعضُ وجوهِ الإنفاقِ كما هو معلومٌ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ يسٓ : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يسٓ : ٥١] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ ولم يقل : (من القبور) ؟

الجوابُ

الأجداثُ هي القبورُ إلا أنه ـ واللهُ أعلمُ ـ كان لاختيارِ الأجداثِ هٰهنا وفي موطنين آخرين سبب ، ذٰلك أن الأجداثَ جمع جَدَثٍ وهو القبرُ ، ولفظة (الجدَث) قريبةٌ في اللفظِ والاشتقاقِ من لفظ (جَدَثة) وليس بينهما إلا زيادةُ الهاءِ في الآخرِ .

والجَدَثةُ صوتُ الحافرِ والخفِّ ومضغ اللحمِ(١) .

وصوت خروجِ الموتىٰ من الأجداثِ مُسرعين شبيهٌ بصوت الحافرِ

(١) انظر : القاموس المحيط (الجدث) .

والخفِّ عند السيرِ والعَدْوِ ، وقد خصَّ استعمالُ الأجداثِ بحالةِ الخروجِ من القبورِ مُسرعين إلىٰ المحشرِ .

قال تعالىٰ : ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر : ٧] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] ، ولم يستعملها في حالةِ السُّكونِ بخلافِ لفظةِ : (القبور) فإنه استعملها في حالِ السكونِ والهمودِ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة : ١٣] ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .

واستعملها في حالِ بعثرتِها وبعثرةِ ما فيها ، فقال : ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار : ٤] ، وقال : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [العاديات : ٩] .

ومع ذٰلك فإن هناك فرقاً بين الحالتين ، فقولُه : ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ لا يدلُّ إلا علىٰ بعثرةِ القبورِ ، كما تقول : (بُعثرت الصناديقُ) ، و(بعثرت الحاجاتُ) ، ولا يدل علىٰ السيرِ والحركةِ ، وإن كان المقصود من بعثرةِ القبورِ ذٰلك .

وكذٰلك قوله : ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ فإنه يدل علىٰ بعثرةِ ما فيها كما تُبعثر الأشياءُ من مكانِها ، ولا يدلُّ ذٰلك من حيث اللفظ إلا علىٰ البعثرةِ ، ولا يدلُّ علىٰ السَّيْر والحركةِ ، بخلافِ ما ورد في استعمالِ الأجداثِ ؛ فإنها كلها تدل علىٰ حركةِ الخارجين منها والإسراعِ في

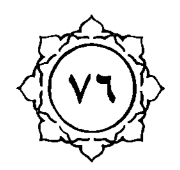
السيرِ ، فقوله : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ معناه : يُسرعون .

وكذٰلك قوله : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : ٧ ـ ٨] ، أي : مُسرعين .

فإنها كلها تدل علىٰ الإسراعِ في السَّيرِ ، وذٰلك نظيرُ صوتِ الحافرِ والخفِّ عند السيرِ .

وفيها دَلالةٌ جماليةٌ أخرىٰ : ذٰلك أن من معنىٰ (الجدثة) ـ كما ذكرنا ـ مضغَ اللحمِ ، فكأن المعنىٰ : إنما يخرجون بعدما أكلتهم الأرض ومضغت لحومهم ، وليس في لفظِ القبورِ مثل ذٰلك المعنىٰ ، وٱلله أعلمُ .

* * *



لماذا وصف الله سيدنا إسماعيلَ بأنه غلامٌ حليمٌ

فقال فيه : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] .

ووصف سيدنا إسحاق بأنه غلامٌ عليمٌ ، فقال فيه : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] ؟

الجوابُ

الحِلمُ : هو أن يملك الشخصُ نفسه عند الغضبِ ، وهو يظهر عند التعاملِ مع الآخرين والعلاقةِ بهم .

وقد ذكر الله علاقةَ إسماعيل بأبيه وبالآخرين في أكثرِ من موطنٍ في القرآن الكريم ، فقد ذكر بعد قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ، قوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

وذكر بناءه البيتَ مع إبراهيمَ أبيه ، فقال : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

وقد ذكر ٱلله عنه أنه رسولٌ نبيٌّ ، وأنه كان صادقَ الوعدِ ، والرِّسالة إنما تقتضي حسنَ التعاملِ مع الآخرين .

وصدقُ الوعدِ إنما يكون إذا وعد جهةً ما بأمرٍ معينٍ فوفاها إياه ، ووصفه بالصيغةِ الاسميةِ يدل علىٰ ثبوتِ هـٰذه الصفةِ فيه .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم : ٥٤ ـ ٥٥] .

وهـٰذه الأمور تقتضي علائقَ اجتماعيةً وفيها يظهر الحلمُ أو غيره ، فوصفه بالحلمِ لذاك .

وأما إسحاقُ فلم يذكر له علاقة بالآخرين ، وقد وصفه ٱلله بالعلمِ ، والعلم لا يقتضي مثل تلك العلائقِ .

ثم إنه قد ذكر ٱلله عنه أنه نبيٌّ ولم يذكر أنه رسولٌ ، فقال : ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الصافات : ١١٢] .

وقال : ﴿ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٤٩] ، والنبوةُ لا تقتضي علائقَ كالرسالةِ ، فوصفه بالعلمِ ولم يصفه بالحلمِ .

ويَحسنُ أن نذكرَ أنه حين يصفُ ٱلله نبيًّا بصفةِ كمالٍ ، لا يعني أن الأنبياء الآخرين ليسوا متصفين بمثل هـٰذه الصِّفةِ ، أو أن هـٰذا النبيَّ لم يتصف بصفة كمالٍ غيرها ، فإذا وصف نوحاً مثلاً بأنه كان عبداً شكوراً ، لا يعني ذاك أن الأنبياء الآخرين ليسوا كذٰلك ، وإذا وصف إبراهيمَ بأنه

أواهٌ مُنيبٌ لا يعني أن إخوانه من الأنبياء ليسوا كذٰلك ، بل كلهم عبادٌ شاكرون لأنعمه سبحانه منيبون إليه ، وإنما هو يذكر أمراً أو وصفاً يقتضيه السياقُ ، أو يكون مشتهراً به أكثر من غيره من الصِّفات ، فوصف كلاًّ منهما بما يقتضيه سياقه الذي ورد فيه ، أو الأمر الذي أُوكِلَ إليه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ (صٓ): ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [صٓ : ١٤] .

وقال في سورةِ (قٓ) : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [قٓ : ١٤] .

سؤالٌ

لماذا قال في آية (صٓ) : ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ وقال في آية (قٓ) : ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ ؟

الجوابُ

إن العقابَ أشدُّ من الوعيدِ ، والصفاتُ المذكورةُ للكافرين في (صٓ) أشدُّ مما في (قٓ) ، وهم في (صٓ) أشدُّ وأعتىٰ علىٰ المسلمينَ مما في (قٓ) ، وذكر من عقوباتِ الأممِ السابقةِ في (صٓ) ما لم يذكره في (قٓ) ، وذكر من تهديدِ الكافرين وتوعدِهم في (صٓ) ما لم يذكره في (قٓ) ، فناسبَ ذٰلك أن يذكر في (صٓ) أشد مما ذكره في (قٓ) .

قال تعالىٰ في (صٓ) : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ

مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ
عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا
بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن
ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ
ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ
وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا
يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ
ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [١ ـ ١٧] .

وقال في (قٓ) : ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ
فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ
ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ
مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾
وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ
عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾
وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ
ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾
وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [١ ـ ١٤] .

ومن النظرِ في النَّصين يتَّضحُ ما يأتي :

١ ـ أنه وصفَ الكافرين في (صٓ) أنهم في عزةٍ وشقاقٍ ، فقال :

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ، ولم يقلْ مثل ذٰلك في (قٓ) .

٢ ـ وذكر أنه أهلك من القرونِ المُكذبةِ السَّابقةِ الكثير فاستغاثوا وصرخوا فلم ينفعهم ذٰلك ، فقال : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [٣] ، ولم يذكر مثل ذٰلك في (قٓ) .

٣ ـ قال الكافرون في الرَّسولِ في (صٓ) ما لم يقولوه في (قٓ) ، فقد قالوا في (صٓ) : ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ، ولم يقولوا مثله في (قٓ) .

قد تقول : ولٰكن ورد أيضاً في (قٓ) ذكر التَّكذيبِ ، فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [٥] .

فنقول : إنه ورد في (صٓ) من التَّكذيبِ ما هو أشدُّ ، إضافةً إلىٰ ما ورد من وصف الرسول بالسحرِ والكذبِ ، فقالوا : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [٧ ـ ٨] ، كما سنذكر .

٤ ـ كان إنكارهم في (صٓ) أشدَّ مما في (قٓ) ، فقد قالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾ ولم يقولوا مثله في (قٓ) .

٥ ـ وكان عجبهم في (صٓ) أشدَّ مما في (قٓ) ، فقد قالوا في (قٓ) : ﴿ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ ، وقالوا في (صٓ) : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ ،

بالتوكيدِ بإن ، واللام ، والعدول عن صيغةِ عجيبٍ إلىٰ عجابٍ ، وهي أشدُّ عجباً من عجيبٍ(١) .

٦ ـ وذكر في (صٓ) أن الكافرين طلبوا السَّعي لنصرةِ آلهتِهم ، فقال : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [٦] ، ولم يذكر ذٰلك عنهم في (قٓ) .

٧ ـ وكرروا إنكارَهم وتكذيبَهم في (صٓ) ، وأنهم لم يسمعوا بمثل هٰذا ، فقالوا : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ .

٨ ـ وكرروا إنكارَهم أن يكون ٱلله اختار محمداً ﷺ لرسالته دونهم ، فقال علىٰ لسانهم : ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ ﴾ [٨] ، ولم يذكر مثل ذٰلك في (قٓ) .

٩ ـ توعدهم ربُّنا في (صٓ) وهدَّدهم بقوله : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾ ، والنفي بـ : « لمَّا » يعني أنهم لم يذوقوا عذابه إلىٰ الآن ، وهو متوقعٌ أن يذوقوه ، وهو تهديدٌ لهم وتوعدٌ بارتقابِ العذابِ ، ولم يقل مثل ذٰلك في (قٓ) .

١٠ ـ وذكر في (صٓ) أن جندهم سيهزم ، فقال : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ [١١] .

« وهٰذا وعدٌ من ٱلله سبحانه لنبيِّه ﷺ بالنصرِ عليهم والظَّفر بهم .

---

(١) انظر : كتابنا (معاني الأبنية في العربية) (٩٨ ـ ١٠٠) .

وقد وقع ذٰلك ولله الحمد في يوم بدرٍ ، وفيما بعده من مواطنِ ٱلله »[١] .

١١ - ذكر في السورتين طرفاً من الأممِ السابقةِ المُكذبةِ ، غير أنه أكد التكذيبَ في (صٓ) أكثر مما أكده في (قٓ) .

فقد قال في (صٓ) : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [١٤] .

وقال في (قٓ) : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [١٤] ، فزاد التكذيبُ توكيداً في (ص) بأسلوبِ القصرِ ، فقال : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ ، ولم يقل مثل ذٰلك في (قٓ) .

هٰذا إضافةً إلىٰ أنه وصفَ فرعونَ في (صٓ) بما لم يصفه في (قٓ) ، فقال : ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾ ولم يصفه بذاك في (قٓ) .

ومما قيل في وصفِ ذي الأوتادِ أنه كانت له أوتادٌ يعذب بها الناس ، وذٰلك أنه إذا غضب علىٰ أحدٍ وتد يديه ورجليه ورأسه علىٰ الأرضِ ، وقيل غير ذٰلك[٢] .

١٢ - ثم توعَّدهم في (صٓ) بعذابٍ يأخذهم لا يمهلهم ، فقال : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [١٥] ، أي : « ما لها من

---

(١) فتح القدير (٤ / ٤١٠) ، وانظر : تفسير ابن كثير (٤ / ٢٨) ، الكشاف (٣ / ٥) .

(٢) انظر : فتح القدير (٤ / ٤١١) ، ابن كثير (٤ / ٥٠٨) ، الكشاف (٣ / ٥) ، البحر المحيط (٧ / ٣٨٦) .

توقفٍ مقدار فواقٍ ، وهو ما بين حلبتي الحالبِ ورضعتي الراضعِ »[١] ، ولم يذكر مثل ذلك في (قٓ) .

١٣ ـ وذكر في (صٓ) أن هـٰؤلاءِ المشركين دعوا علىٰ أنفسهم بتعجيلِ العذابِ والعقوبةِ إمعاناً في التكذيبِ ، فقال : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [١٦] .

جاء في (تفسير ابن كثير) : « ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ هـٰذا إنكارٌ من ٱلله تعالىٰ علىٰ المشركين في دعائهم علىٰ أنفسهم تعجيل العذاب ، فإن القطَّ هو الكتابُ ، وقيل : هو الحظُّ والنصيبُ .

قال غير واحدٍ من المفسرين : سألوا تعجيلَ العذابِ . . . كما قالوا : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال : ٣٢] »[٢] ، ولم يذكر مثل ذلكَ في (قٓ) .

١٤ ـ أمر رسوله ﷺ في (صٓ) بالصَّبرِ علىٰ ما يقولون ، فقال : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [١٧] ، ولم يذكر مثل ذلك في (قٓ) في هـٰذا السياقِ .

فاتضح أن موقفَ الكافرين في (صٓ) أشدُّ وأعتىٰ ، فاستحقوا

---

(١) الكشاف (٣ / ٥) ، وانظر : البحر المحيط (٧ / ٣٨٧) .
(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٢٩) ، وانظر : الكشاف (٣ / ٦) .

الزِّيادة في التهديدِ ، فقال : ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ الذي هو أشدُّ من الوعيدِ ، فناسب كلٌّ سياقٍ ما ورد فيه .

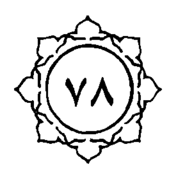
ثم إنه ناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه من جهةٍ أخرىٰ :

فقد قال في (صٓ) : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ فكان أسلوبُ التكذيبِ في (صٓ) أشد وآكد ؛ لأنه جاء بأسلوبِ القصرِ فاستحقوا من العقوبةِ ما هو أشدُّ مما هو في (قٓ) .

١٥ ـ وإضافةً إلىٰ ذٰلك أن كلمة ﴿وَعِيدِ﴾ وردت في (قٓ) أربعَ مراتٍ ولم ترد في (صٓ) ، بل هي أكثرُ سورةٍ في القرآن وردت فيها هـٰذه اللفظة .

وأن كلمة (العقاب) لم ترد في (قٓ) ، فناسب كلٌّ تعبيرٍ مكانَه من جهةٍ أخرىٰ ، وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ (صٓ) : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ١٧] .

وقال في سورةِ الذارياتِ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

سؤالٌ

لماذا رُسمت ﴿ ٱلْأَيْدِ﴾ في سورة (صٓ) بياءٍ واحدةٍ ، ورُسمت في سورة الذاريات ﴿ بِأَيْيْدٍ﴾ بياءين مع أنهما كلمةٌ واحدةٌ ، ولفظٌ واحدٌ ؟

الجوابُ

من المعلومِ أن رسم المصحفِ لا يُقاسُ عليه ، ولـٰكن مع ذٰلك كأن في هـٰذا الرَّسمِ جانباً بيانيًّا .

إن معنىٰ (الأيد) : هو القوةُ في الآيتين ، لـٰكن لما كانت قوةُ ٱلله زائدةً علىٰ قوةِ داودَ زِيد في الرَّسمِ .

ومما سوَّغ ذٰلك أيضاً أن ٱلله سبحانه عبَّر عن نفسِه بضمير الجمعِ للتعظيمِ ، فقال : ﴿ بَنَيْنَٰهَا﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ بخلاف كلامه علىٰ

داود ، فناسب جمع ياءين في موطنِ الجمعِ ، والإفراد في موطنِ الإفرادِ ، علماً بأن هـٰذا النوع من الرَّسم كان جارياً في ذٰلك الوقتِ ؛ أعني زيادة حرفِ علةٍ في الرَّسم .

فناسب كلُّ رسمٍ موضعَه ، وهو من لطيفِ الرَّسمِ ، وٱللهُ أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الزمرِ : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر : ١٧ ـ ١٨] .

وقال في سورةِ الفجرِ : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر : ٢٧ ـ ٣٠] .

سؤالٌ

لماذا قال في فاصلةِ آيةِ الزمر : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ فحذف ياءَ المتكلمِ في كلمةِ ﴿عِبَادِ﴾ ، وقال في فاصلةِ آيةِ الفجرِ : ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ فذكر ياءَ المتكلمِ فيها ؟

الجوابُ

إن هٰذا يدخل فيما ذكرناه في كتابنا (بلاغةِ الكلمةِ في التعبيرِ القرآني) من أن ما ذكرت فيه الياءُ أوسعُ وأشملُ مما حُذفت منه الياءُ[1] . وذٰلك أن العبادَ في آيةِ الفجرِ أكثر منهم في آيةِ الزمرِ ، فقد خصَّصهم في

(١) انظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني (٣١) وما بعدها ، وانظر : (ص : ٣٧)

آيةِ الزمرِ بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ فهم لم يكتفوا بالحسنِ بل يتبعون الأحسنَ ، وأطلقهم في آيةِ الفجرِ في عمومِ عباده الذين يدخلون الجنةَ ولاشكَّ أن فيهم مَن لم يكن يتبع أحسنَ القولِ .

فلما كثر العبادُ في آيةِ الفجرِ زاد في البناء مناسبةً لزيادةِ العبادِ ، ولما كان العبادُ في آيةِ الزمرِ جزءاً ممن ذكر في آيةِ الفجرِ اقتطع من الكلمة ؛ لتناسب قلة البنـاءِ قلّةَ العبادِ .

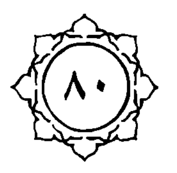
ومما حسَّن ذٰلك أيضاً مناسبةُ كلِّ فاصلةٍ للفواصلِ التي وردت معها ، فإن فاصلةَ آيةِ الزمرِ تقع ضمن فواصل شبيهةٍ بهٰذه الفاصلةِ ، نحو : ﴿ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ و : ﴿ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ ونحوها(١) .

وإن فاصلةَ آيةِ الفجرِ مناسبةٌ لفاصلةِ الآيةِ بعدها ، وهي قوله : ﴿ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ بإضافةِ الجنةِ إلىٰ ياءِ المتكلمِ ، فناسب أن يظهر ضميرَ المتكلمِ مع العبادِ ، كما ظهر مع الجنةِ ، فالعبادُ عباده ، والجنةُ جنته ، وعباده يدخلون جنته .

* * *

---

(١) انظر : بلاغة الكلمة (ص٣٧) .



قال تعالىٰ في سورةِ غافر : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٥ ـ ١٧] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ ٱلتَّلَاقِ ﴾ فحذفَ الياءَ ولم يقل : (التلاقي) ؟

الجوابُ

من الظَّواهرِ التَّعبيريةِ في القرآنِ الكريمِ أنه إذا كان الحدث دونَ الاكتمالِ اقتطع من حروفه ، وإذا كان حدثان بعضهما أطولُ من بعضٍ ، أو كان وقوعه أكثر ، اقتطع مما هو أقصرُ ، وقد ضربنا في كتابنا : (بلاغةُ الكلمةِ في التعبير القرآني) أمثلة لذٰلك ، كما في نحو : ﴿ ٱسْطَٰعُوٓاْ ﴾ و : ﴿ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾ ، و : ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ و : ﴿ تَتَنَزَّلُ ﴾ ، و : ﴿ تَوَفَّىٰهُمُ ﴾ و : ﴿ تَتَوَفَّىٰهُمُ ﴾ وغيرها[1] .

وفي هٰذا اليوم ـ أي يوم القيامة ـ ليس التلاقي كما في الدنيا من

(١) انظر : (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) (ص : ١١) وما بعدها .

حيث الطول وتبادل الحديثِ ، فإن المتلاقين لا يُفيضون في الحديثِ وبثِّ الأشواقِ ، ولا يحدِّث بعضهم بعضاً عمّا جرىٰ لكلٍّ منهم في الفراقِ الطويلِ بينهما ، فإن هـٰذا اليوم إنما هو يوم الفرارِ الأكبرِ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤ ـ ٣٧] ، ولا يسألُ أحدٌ صاحبه عمّا جرىٰ له كما أخبر ربُّنا بذٰلك ، فقال : ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج : ١٠] ، أي : لا يسأل قريبٌ قريباً فكيف بالأباعدِ ؟

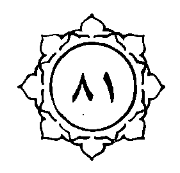
وكما قال أيضاً : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] .

ومن هـٰذا يتبين أن التلاقي يوم القيامةِ ليس كما في الدنيا ، من حيث بثُّ المشاعرِ ، وسماع الحديثِ ، وطُول المُكثِ بينهم ، وإنما هو فرارٌ من غيرِ مُساءلةٍ ، فإن لكلِّ امرئ شأناً يغنيه حتىٰ يقضي ٱلله بين عباده ، وتُجزىٰ كلُّ نفسٍ بما كسبت .

فاقتطع من الحدثِ ؛ ليدل علىٰ أنه ليس حدثاً مكتملاً ، يجري فيه ما يجري مع المتلاقين في الدنيا .

هـٰذا علاوةً علىٰ مناسبةِ الحذفِ لفواصلِ الآياتِ ، وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الشُّورىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورىٰ : ٣٠] .

وقال في السُّورةِ نفسِها في الآيةِ : [٤٨] : ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴾ .

سؤالٌ

لماذا قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ ، وقال في الآيةِ الأخرىٰ : ﴿ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ فذكر الكسبَ في الآيةِ الأولىٰ ، وذكرَ التَّقديمَ في الآيةِ الأخرىٰ ؟

الجوابُ

لقد سبق الآيةَ الأولىٰ الكلامُ علىٰ الرِّزقِ ، فقال : ﴿ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ [٢٧] ، والرِّزقُ مما يُكسب ، فناسب ذكرَ الكسبِ .

وليس السِّياقُ كذٰلك في الآيةِ الأخرىٰ ، وإنما السِّياقُ في الكلامِ علىٰ اليومِ الآخرِ ، فقد قال : ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ

مِن ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ [٤٧] .

فناسب ذكر ما قدموه من أعمالٍ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه الذي ورد فيه .

ونظير ذٰلك قوله تعالىٰ في سورةِ الروم : ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [٤١] .

فذكر الكسبَ لما تقدمها ذِكْرُ الرِّزقِ والأموالِ ، فقال : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [٣٧ ـ ٤٠] .

في حين قال في السورةِ نفسِها : ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ [الروم : ٣٦] ، فقال : ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ فذكرَ التقديمَ لما لم يكن السياقُ في ذكرِ الرِّزقِ ، وإنما تقدمها ذكر الضُّرِّ والرَّحمةِ ، فقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [٣٣] ، فناسبَ كلُّ تعبيرٍ مكانَه الذي ورد فيه في كلِّ موضعٍ .

* * *



قال سبحانه في سورة الشُّورىٰ: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورىٰ : ٤٩ ـ ٥٠] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا قدَّم الإناثَ علىٰ الذكورِ ، ونكَّر الإناثَ ، وعرَّف الذكورَ في الآيةِ التاسعة والأربعين ؟

٢ ـ لماذا جمع الذَّكر علىٰ ذكورٍ في الآية الأولىٰ ، وعلىٰ (ذكران) في الآيةِ التي قبلها ؟

الجوابُ

١ ـ إن الجواب عن السُّؤالِ من أكثرِ من وجهٍ :

منها : أنه تردد في السورةِ في أكثرِ من موضعٍ ما لا يرغب فيه الإنسان ولا يشاؤه ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [٣٠] ، وقوله : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ ﴾ [٤٠] .

وقوله : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [٤٣] ، وواضحٌ أن الصَّبرَ ههنا علىٰ المكارهِ ومغفرةِ ما يسوؤه من الأمورِ .

وقوله : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [٤٨] .

وقوله : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [٤٩] .

فقدَّم ما لا يرغبُ فيه أهلُ الجاهليةِ آنذاك ، وهو متَّسقٌ مع ما تردد في السورةِ كما ذكرنا .

ثم إن سياقَ الكلامِ في أن ٱلله فاعلٌ ما يشاء لا ما يشاؤه الإنسان ويهواه ، فقد قال : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾ [الشورىٰ : ٤٩] ، أي : ما يشاؤه هو ، لا ما يشاؤه الإنسان ، وذٰلك لحكمةٍ أرادها سبحانه .

جاء في (روح المعاني) : « ولما ذكر سبحانه إذاقةَ الإنسانِ الرحمةَ ، وإصابته بضدها ، أتبع جلَّ وعلا ذٰلك أن له سبحانه الملك ، وأنه تعالىٰ يقسم النِّعمةَ والبلاءَ كما شاء بحكمته تعالىٰ البالغة ، لا كما شاء الإنسانُ بهواه »[١] .

ثم إن هـٰذا التقديمَ ناسب ذكرَ البلاءِ في الآية التي سبقت هـٰذه الآية ، وهو قوله : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [٤٨] .

ومجيءُ الإناثِ مما يُسيء العرب آنذاك ، وهو ما يكرهونه

---

(١) روح المعاني (٢٥ / ٥٣) .

لأنفسهم ، كما أخبر عنهم سبحانه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ ـ ٥٩] ، فجعلها في سياقِ ما يصيبهم مما يكرهون .

وقيل : قد يكون التقديمُ توصيةً برعايتهن لضعفهن ، وإن إحسانَ التربيةِ إليهن سِتْرٌ من النارِ كما في الحديثِ[١] .

أما تعريفُ الذكورِ وتنكيرُ الإناثِ ، فقد قيل : إنه « جاء لفظُ الذكورِ معرّفاً ليشير ـ بما تُعطيه الألف واللام من العهدية ـ إلىٰ حالهم من الفضلِ ، ودرجة التقدمِ علىٰ الإناثِ ، فكأنه في قوةٍ أن لو قيل : الذين من شأنهم ، فتوازن تقديمُ الإناثِ وتعريفُ الذكورِ ، فقدَّم ذكرَ الإناثِ لإرغامِ العربِ ، وعرَّف الذكورَ لشرفِ المنزلةِ »[٢] .

وقيل : « إن التعريف علىٰ أنه المعروف الحاضر في قلوبهم أول كل خاطر ، وإنه الذي عقدوا عليه مناهم »[٣] .

ثم إن العربَ يُكنُّون عن النِّساءِ ، ولا يذكرون أسماءهن صوناً لهن ، بخلاف الذكور ، فالذكور معارفُ عندَ العربِ مشاهيرُ عندهم ، بخلافِ الإناثِ ، فإنهن مصوناتٌ مستوراتٌ لا يبرزن ولا يُعرفن ، فعرَّف ونكَّر بحسب ما جرتِ العادةُ عندهم من استحسانِ كلِّ جنسٍ ، والله أعلمُ .

---

(١) انظر : روح المعاني (٢٥ / ٥٤) .
(٢) ملاك التأويل (٢ / ٨٤٧) .
(٣) روح المعاني (٢٥ / ٥٤) .

٢ ـ أما الجوابُ عن السؤالِ الثاني ، وهو أنه لماذا جمع الذَّكَر مرةً علىٰ الذكورِ ، ومرة علىٰ ذكرانٍ ؟ فهٰذا له سببه ، فإن القرآنَ الكريمَ يستعمل (فُعلان) في الجمعِ للقلةِ النسبيةِ .

وعلىٰ هٰذا حيث ورد هٰذانِ الجمعانِ في القرآنِ كان الذُّكران أقل من الذكورِ ، وفي الآيةِ هٰذه قال تعالىٰ : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ ﴾ [الشورىٰ : ٤٩ ـ ٥٠] . « فاستعمل الذكورَ للكثرةِ ، والذكرانَ للقلةِ النسبيةِ ، فإن العادة أنه إذا أفرد شخص بالذكور كانوا أكثر من أن يقرنهم بالإناث ، فإن المرأة إذا ولدت ذكوراً فقط كان عددُ الذكورِ أكثرَ في العادةِ من أن تلد ذكراناً وإناثاً .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥] ، وقال : ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا ﴾ [الأنعام : ١٣٩] ، فاستعمل الذكرانَ للقلةِ النسبيةِ ، فإن الموصوفين بهٰذه الصفةِ لا يأتون جميع الذكورِ ، وإنما يأتون صنفاً خاصًّا منهم ، ألا ترىٰ أنهم لا يأتون الأطفالَ والشيوخَ ، وإنما يأتون مَن تستسيغه نفوسهم المنكوسة من الذكرانِ ، وهم أقل من مجموعِ الذكورِ بخلاف قوله تعالىٰ : ﴿ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا ﴾ فإنه يشمَل جميعَ الذكورِ بلا استثناءٍ ، والله أعلمُ »[١] .

* * *

(١) معاني الأبنية في العربية (١٥٨ ـ ١٥٩) .



قال تعالىٰ في سورةِ الزخرفِ : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٢] .

وقال في الآيةِ التي تليها : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

سؤالٌ

لماذا قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ ، وقال في الآيةِ التي تليها : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ؟

الجوابُ

إن الآية الأولىٰ في كفارِ العربِ المعاصرين للرَّسولِ ﷺ ، وقد ذكر عنهم أموراً تتعلَّق بمعتقداتهم في الملائكةِ والعباداتِ ، ومحاجَّتهم في ذٰلك .

فقد قال عنهم في سياقِ هٰذه الآياتِ : إنهم قالوا عن ٱلله سبحانه : إنه اتَّخذ مما يخلق بناتٍ ؛ يعنون الملائكةَ ، فقال لهم سبحانه : ﴿ أَمِ

ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف : ١٦] .

وقال ذاكراً معتقدَهم في الملائكةِ : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [١٩] ، وحكىٰ عنهم ما كانوا يعتقدون في المشيئةِ ، فقال : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ﴾ [٢٠] .

وردَّ عليهم سبحانه بعدم العلمِ ، قائلاً : ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [٢٠] نافياً عنهم العلم بذٰلك .

وهٰذا مما يحتاج إلىٰ الهدىٰ ، ولا تُقال تخرصاً وظنًّا ، ثم قال سبحانه نافياً عنهم أسبابَ الهدىٰ والعلمِ : ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [٢١] ، ولما كانت هٰذه الأمورُ تحتاج إلىٰ الهدىٰ احتجوا بأنهم مهتدون بآثار آبائِهم ، فقالوا : إنهم وجدوا آباءَهم علىٰ ملةٍ أو دينٍ ، وهم مهتدون علىٰ آثارِهم .

وأما الآيةُ الأخرىٰ فهي في الأممِ السابقةِ ، فقد قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

ولم يذكر عنهم معتقداً ولا احتجاجاً ، ولا سبباً من أسبابِ العلمِ والهدىٰ ، فلم يقتضِ ذكرَ الهدىٰ .

هٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أنه ذكر قول مُترفيهم ، والمترفون لا تعنيهم أمورُ العباداتِ ولا يعنيهم الهدىٰ ، ولم يذكر القرآن الذين أُترفوا والمترفين بخير ، بل حيث ذَكَرَهُم ذَكَرَهُم مُعاندينَ مُعرضينَ

مُكذبيـنَ مُحاربينَ لله ورُسـله ، لا يعنيهـم شيءٌ من أمـورِ الهـدىٰ ، فلم يذكروا الهدىٰ ، وإنما ذكروا أنهم مُتبعون لآبائِهم مقتـدون بهـم علىٰ أيةِ حالٍ ، والاقتداءُ هو الاتباعُ علىٰ أيةِ حالٍ سواء كان القدوةُ ضالاً أم مهتدياً ، جاء في (المفردات في غريب القرآن) :

« الأسوةُ والإسوةُ كالقِدوة والقُدوة ، وهي الحالةُ التي يكون الإنسان عليها في اتباعِ غيره إن حسناً وإن قبيحاً ، وإن سارّاً وإن ضارّاً ، ولهٰـذا قـال تعـالـىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] فوصفها بالحسنةِ »[1] .

جاء في (درة التنزيل) في سببِ الاختلافِ بين هاتين الفاصلتين في الآيتين المذكورتين من سورةِ الزخرفِ : « الجوابُ أن يقال : إن الأولىٰ حكاية قولِ الكفارِ الذين حاجُّوا النبيَّ ﷺ ، فقال مُخبراً عنهم : ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي : من قبلِ القرآنِ ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف : ٢١] أي كتاباً فيه حجةٌ بصحةِ دعواهم فهم متعلِّقون به . . .

وقال تعالىٰ : لا حجةَ لهم ، لٰكنهم قالوا : وجدنا آباءنا علىٰ ملَّةٍ وطريقةٍ في الدينِ مقصودةٍ ، ونحن في اتباع آثارهم علىٰ هدايةٍ ، فادَّعَوا الاهتداء بسلوكهم سبيلَ آبائهم .

وأما الآيةُ الثانية فإنها خبرٌ عن الأممِ الكافرةِ بأنبيائها ، قال : ﴿ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [الزخرف : ٢٣] إلا قال ذوو النعمِ والأموالِ

---

(١) المفردات في غريب القرآن (أسا) .

من أهلها قريباً من قولِ هٰؤلاءِ الذين في عصركَ يا محمد ، فكان أقصىٰ ما احتجوا به أن قالوا : إنا وجدنا آباءنا علىٰ أمةٍ فاقتدينا بهم ، ولم يؤكدِ الخبر عنهم بدعواهم الاهتداء ، كما أكده عمَّن كان في عصره ممن يدعيه ؛ لبطلان قول الجميع »[1] .

وجاء في (ملاكِ التأويل) في هاتين الآيتين : « ووجهُ ذٰلك ـ وٱلله أعلمُ ـ أن ما تقدم الآية الأولىٰ حكاية قولِ كفارِ العربِ المعاصرين لرسول ٱلله ﷺ ، والسامعين منه القرآن المسمَّىٰ هدىً في غيرِ موضعٍ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] وقوله : ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ [الجاثية : ١١] ، وقوله : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان : ٣] فلما دعاهم ﷺ ليهتدوا بهديه قابلوا دعاءَه بقولِهم : إنهم مهتدون ، وإنهم وجدوا آباءهم علىٰ أمةٍ ، وأن ما وجدوهم عليه هدىً ، فقالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف : ٢٢] أي : علىٰ دينٍ وملةٍ ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ كهديهم ، فلما دعاهم إلىٰ الهدىٰ زعموا أنهم علىٰ هدىً . وهٰذا أبين تناسبٍ .

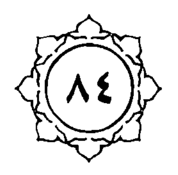
وأما الآية الثانية فحكايةُ أقوالِ قرونٍ مختلفةٍ ، وقد ذكر تعالىٰ من قول بعضهم : ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٣] وفي موضعٍ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٧٤] فهٰذا اتِّباعٌ مجرَّدٌ ممَّن ادّعىٰ كونه هدى أو غير هدى ، فهو اعترافٌ بتقليدٍ ، واتباع بتعظيمٍ لفعلِ آبائهم من غير ادِّعاءِ شبهةٍ ، فلم يكن ليطابق هٰذا ، إلا الوارد من قولِهِ تعالىٰ

(١) درة التنزيل (٤٣٤) .

عنهم : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] ، فجاء كلٌّ علىٰ ما يناسبُ ، وٱلله أعلمُ »[1] .

* * *

(١) ملاك التأويل (٨٥١ ـ ٨٥٢) .



قال تعالىٰ في سورة الزخرف : ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ ﴾ [الزخرف : ٢٤] .

سؤالٌ

لماذا رُسمت (قال) في الآيةِ الرابعةِ والعشرين من سورة الزخرفِ ﴿ ۞ قَٰلَ ﴾ من دون رسمِ الألف ، وذٰلك في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ ﴾ . ورُسمت في الآيةِ السادسةِ والعشرين من السورةِ نفسِها بـ : ﴿ قَالَ ﴾ برسم الألفِ وذٰلك في قوله : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ . . . ﴾ ؟

الجوابُ

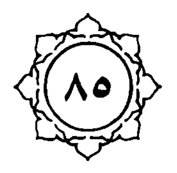
إن ذٰلك يتعلق برسمِ المصحفِ أولاً ، ورسم المصحف لا يُقاس عليه ، ثم إن ذٰلك لأمرٍ آخر ، وهو أن في ﴿ قَٰلَ ﴾ في الآيةِ الرابعةِ والعشرين قراءتين متواترتين : قراءةً بالفعل الماضي (قال) ، وهي قراءةُ

ابن عامر وحفص عن عاصم ، وقراءةً بفعلِ الأمر : (قل) وهي قراءةُ الباقين من العشرةِ[١] .

فكلتا القراءتين متواترةٌ فرُسمت بما تصحُّ فيه القراءتان ؛ إشارةً إلىٰ أن هاتين القراءتين وردتا عن رسول ٱلله ﷺ . ومعلومٌ أن من أركانِ القراءةِ الصَّحيحةِ موافقةُ الرسمِ العثمانيِّ .

* * *

(١) انظر : النشر في القراءات العشر (٢ / ٣٦٩) .



قال تعالىٰ في سورة الزخرف: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] .

سؤالٌ

لماذا كرر كلمةَ ﴿ إِلَٰهٌ ﴾ ولم يقلْ مثلاً : (وهو الذي في السماءِ والأرض إلـٰه) أو : (وهو الذي في السماء وفي الأرض إلـٰه) ؟

الجوابُ

لو قال : (وهو الذي في السماء والأرض إلـٰه) لاحتمل المعنىٰ أنه هو الإلهُ المشتركُ فيهما ، وقد يكون فيهما آلهةٌ غيرُ مشتركةٍ ، فقد يكون المعنىٰ أن في السَّماء إلـٰهاً أو آلهةً خاصةً بها ، ليست لأهلِ الأرضِ ، وقد يكون في الأرضِ إلهٌ أو آلهةٌ خاصَّةٌ ليست لأهلِ السَّماءِ ، ولـٰكن الإلهَ المشتركَ فيهما هو ٱلله ، وهـٰذا المعنىٰ لا يصحُّ أن يُراد .

أما لو قلنا : (وهو الذي في السماء وفي الأرض إلـٰه) فإن ذٰلك لا ينصُّ علىٰ أنه إلهٌ في السَّماءِ ، بل علىٰ أنه إلهٌ في الأرضِ ؛ إذ إن المعنىٰ سيحتمل أن يكون : (وهو الذي في السماء) (وفي الأرض

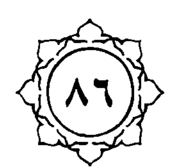
إلـٰه) فإن ذٰلك يدلُّ علىٰ أنه في السَّماءِ ، وهو في الأرضِ إلهٌ ، كما تقول : (هو في إدارةِ المعملِ ، وفي كليةِ الآدابِ عميدٌ) فإن ذٰلك لا يعني أنه عميدٌ في إدارةِ المعملِ .

أما قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ فهو نصٌّ في أنه إلهٌ في السَّماءِ لا إلـٰهَ غيره ، وفي الأرضِ هو إلـٰهٌ لا إلـٰهَ غيره ، وهو المعنىٰ المُراد .

وقيل أيضاً : إنه كرَّر ذٰلك ؛ لأن عبودية أهلِ السَّماءِ تختلف عن عبوديةِ أهلِ الأرضِ[1] .

* * *

(١) انظر : روح المعاني (٢٥ / ١٠٧) .



قال تعالىٰ في سورةِ الذارياتِ : ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٣٨ ـ ٣٩] .

وقال في هٰذه السُّورةِ أيضاً : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٥٢] .

سؤالٌ

لماذا رُسمتْ كلمةُ (ساحرٌ) في الآية التاسعة والثلاثين ﴿ سَٰحِرٌ ﴾ بلا ألفٍ ، ورُسمتْ في الآية الثانية والخمسين ﴿ سَاحِرٌ ﴾ بالألفِ ؟

الجوابُ

إن كلمة (ساحر) رُسمت في المصحفِ بأكثرِ من صورةٍ ، فالمعرَّفة بـ : (أل) رُسمت بالألفِ حيث وقعت ، وذٰلك نحو قولِه تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٩] .

وهٰذه الصُّورة لا تعنينا وهي صورةٌ لم يختلف بعضها عن بعضٍ ، فلا تكون مثارَ سؤالٍ ، وأما النَّكرة فرُسمت من دونِ ألفٍ حيث وقعت ؛

أي (سٰحر) ، إلا في قوله تعالىٰ في الذارياتِ : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ ، والسؤالُ إنما هو عن سببِ الاختلافِ في رسم هٰذه الكلمة هنا عن سائرِ الآياتِ ، ومنها آية الذارياتِ في قوله : ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ .

والجوابُ : إن كلمة (ساحر) الأولىٰ إنما قيلت في موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وهو شخصٌ واحدٌ .

أما الآية الثانية فهي في الأممِ السابقةِ ، وقد قالوا في كلِّ واحدٍ من رسلهم : ﴿ سَاحِرٌ ﴾ ، فالآية الأولىٰ في رسولٍ واحدٍ ، أما الآيةُ الأخرىٰ فإنها في رُسلٍ كثيرين ، فلما كثر الرُّسلُ وزادوا زِيدَ في الرَّسم مناسبة للزيادةِ .

قد تقول : ولٰكنها رُسمت في قولِه تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [يونس : ٧٩] ، وقوله : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٢] من دون ألفٍ مع أنهم أكثرُ من واحدٍ ، فما الفرق ؟

والجوابُ : إن هٰؤلاءِ في قومٍ مخصوصين وهم قومُ فرعونَ ، وأما قوله تعالىٰ : ﴿ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم . . . ﴾ فهو في جميعِ الأممِ السابقةِ ، ولا شك أن أولٰئك أكثر من سحرةِ فرعونَ ، فلما كثرتِ الأممُ وامتدت وتطاولت زِيدَ في الرسمِ .

وعلىٰ أيةِ حالٍ فهٰذا من خطِّ المصحفِ الذي لا يُقاس عليه ، كما

ذكرنا أكثر من مرةٍ ، وهـٰذا التَّعليل لا نقطع بصحَّتِهِ ، فقد يكون من بابِ الموافقاتِ .

وهـٰذا ينطبق علىٰ أكثرِ ما نذكره فيما يتعلق برسمِ المصحفِ .

وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الطورِ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : ٧ ـ ٨] .

وقال في سورةِ المعارجِ : ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ [المعارج : ١ ـ ٢] .

سؤالٌ

لماذا قال في سورةِ الطورِ : ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ فنفىٰ بـ : (ما) ، وقال في سورةِ المعارجِ : ﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ فنفىٰ بـ : (ليس) ؟

الجوابُ

إن الآيةَ في سورةِ الطورِ مسبوقةٌ بقسمٍ ، وهو قوله : ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [١ ـ ٨] .

وقد تلقىٰ القسم بالجملةِ الاسميةِ المؤكَّدةِ بـ : (إنّ) واللام ، فقال : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ ، ونفىٰ دفعه بالجملةِ الاسميةِ المؤكدةِ أيضاً

مناسبةً لجواب القسم المؤكد ، فقال : ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ ، فنفاها بـ : (ما) وجاء بـ : (من) الاستغراقيةِ المؤكدةِ .

أما في سورةِ المعارجِ فليس ثمةَ قسمٌ ، وإنما قال : ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أي دعا لنفسه بالعذابِ وطلبه لها ، ونفىٰ دفعه بالجملةِ الفعليةِ ، فقال : ﴿ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ ، فقوله : ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ أنسب بالقسمِ ، وأنسب بالجملةِ التي قبله .

وقد أكد وقوعَ العذابِ في آيةِ الطورِ دون آيةِ المعارجِ ؛ لأن السِّياقَ في الطُّورِ يدلُّ علىٰ وقوعِهِ فعلاً ، وليس الأمر كذٰلك في المعارجِ ، فقد قال في المعارجِ : ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [٥ ـ ٧] .

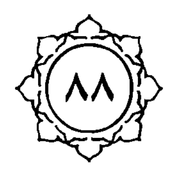
فأمره بالصبرِ الجميلِ ، ثم قال : ﴿ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدًا ﴾ ، وذٰلك يدل علىٰ أن في الزمنِ متسعاً بينهم وبينه ، ولم يقل مثل ذٰلك في الطورِ .

ثم إنه في المعارجِ ذكرَ موقفَ المجرمِ من العذابِ الذي سيلحقه يومئذٍ ، وهو من الوعيدِ الذي توعده به ربه ، وليس واقعاً بعدُ ، فقال : ﴿ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴾ [١١ ـ ١٨] .

وأما في الطُّورِ فالسِّياقُ يبيِّنُ أن الأمرَ حاصلٌ ، وأنهم يشاهدون النارَ موقوفين عليها ، مخاطبين بقولِهِ : ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا

﴿تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٤ ـ ١٦] ، فوقوعُ العذابِ وعدمُ دفعِه في الطُّورِ آكدُ ، وهو أقربُ مما في المعارجِ ، فأكَّده دون آيةِ المعارجِ ، فناسبَ كلٌّ تعبيرٍ موضعَه .

* * *



قال تعالىٰ في سورة القمر: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : ١٦] .

سؤالٌ

قوله تعالىٰ في سورة القمر : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٠] يأتي به مرةً بعد ذكرِ العذابِ كما في قصةِ نوحٍ ، ومرة يأتي به قبل ذكرِ العذابِ كما في ثمودَ ، ومرةً يأتي به مرتين : قبل ذكرِ العذابِ وبعد ذكرِ العذابِ كما في عادٍ ، فما السببُ ؟

الجوابُ

يأتي قوله تعالىٰ : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ في حالتين :

الحالةُ الأولىٰ : أن يذكر القومَ ومخالفتهم رسولهم ، فيقول : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي : فكيف عاقبناهم ؟

فيكون السؤالُ بقصدِ بيانِ العذابِ ، ثم يذكر عذابهم .

والحالةُ الأخرىٰ : أن يذكر القوم ويذكر مخالفتهم رسولهم ، ثم

يـذكـر عقـابهـم ، فيقـول : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أليـس هـٰـذا ما يستحقونه ؟

فيكون القصدُ من ذٰلك هو التعجيبُ والتهويلُ من عقوبةِ ربِّنا لهم ، وسوءِ عاقبتِهم ، جاء في (روح المعاني) : « ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ : لتوجيه قلوبِ السامعين نحو الإصغاءِ إلىٰ ما لا يلقىٰ إليهم قبل ذكره ، لا لتهويله ، وتعظيمه ، وتعجيبهم من حالِهِ بعد بيانِهِ كما قبله ، كأنه قال : كذبت عادٌ فهل سمعتم أو فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذاري لهم »[1] .

أما الجوابُ عن سببِ مجيئِهِ مرةً واحدةً في قومِ نوحٍ ، ومرةً واحدةً في ثمودَ ، ومرتين في عادٍ ، فذٰلك ـ واللهُ أعلمُ ـ :

أن تكذيبَ عادٍ أعمُّ من تكذيبِ قومِ نوحٍ وثمودَ ، فقد قال في قومِ نوحٍ : ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ [٩] .

فذكر أنهم كذَّبوا عبدَ اللهِ ؛ أي : رسولَه ، وهو نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وقال في ثمود : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [٢٣ ـ ٢٤] وما بعدهما ، فذكر أنهم كذبوا بالنذر .

وأما عادٌ فلم يذكر بماذا كذبوا ، ولا مَن كذبوا ، وإنما قال : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ .

فكان تكذيبهم أعمَّ ، فذكر قوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

---

(١) روح المعاني (٢٧ / ٨٤) .

مرتين ، مرةً قبلَ العذابِ ، ومرةً بعدَ العذابِ ليجمع حالتي البيانِ والتهويلِ ، فعمَّ ذٰلك الحالتين ، وهٰذا أعمُّ من أن يذكر حالةً واحدةً فناسبَ العمومُ العمومَ ، واللهُ أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في الممتحنةِ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقال في الممتحنةِ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة : ٦] .

وقال في سورةِ الأحزابِ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا أنّث الفعلَ في الآيةِ الرابعةِ ، فقال : ﴿ كَانَتْ ﴾ ، وذكَّره في الموطنين الآخرين مع أن اسمَ (كان) في المواطنِ كلِّها واحدٌ ، وهو (الأسوة) ؟

٢ ـ ولماذا قدَّم في الآيةِ الرابعةِ الأسوةَ علىٰ المؤتسىٰ به ، وأخَّرها عنه في الآيتين الأخريين ؟

الجوابُ

١ ـ إن الأسوةَ « تطلق علىٰ الخصْلةِ التي من حقِّها أن يؤتسىٰ

بها ، ويُقتدىٰ بها »[١] وتُطلق أيضاً علىٰ الشخص المؤتسىٰ به .

والراجح في الآيةِ الرابعةِ أنه أُريد بها الخصلة بدليلِ أنه ذكرها وبيّنها ، فقال : ﴿ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ . . . ﴾ و« لأن الاستثناءَ الآتي عليها أظهرُ »[٢] فقال : ﴿ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ ﴾ وهـٰذا ما يُرجح إرادة الخَصلة .

فلما كانت الأُسوةُ ههنا بمعنىٰ المؤنث أنَّثها .

أما في الآيتين الأخريين فيُراد بها الشخصُ المتأسَّىٰ به ، وهي بمعنىٰ المثَل ، بدليل أنه ذكر الأشخاص ، ولم يذكرِ الخصلة ، فلما كانت الأولىٰ بمعنىٰ المؤنث أنَّث الفعل .

ولما كانت في الآيتين الأخريينِ بمعنىٰ المذكرِ ذكَّر الفعلَ . هـٰذا من ناحيةٍ .

ومن ناحيةٍ أخرىٰ أنه مما حسَّن التذكيرَ أيضاً في الآيةِ السادسةِ ، وآية الأحزابِ كثرةُ الفواصلِ بين كان واسمها .

فقد فَصَلَ في الآيةِ الرابعةِ بالجارِ والمجرورِ (لكم) .

وأما الموطنان الآخرانِ فقد فصَل فيهما ـ إضافةً إلىٰ الجار والمجرور (لكم) ـ بمجرورين آخرينِ وهما في الآيةِ السادسةِ (فيهم)، وفي آيةِ الأحزابِ بـ (في رسول ٱلله) ، فحسن التَّذكير من جهتين .

---

(١) روح المعاني (٢٨ / ٦٩) .

(٢) روح المعاني (٢٨ / ٧٠) .

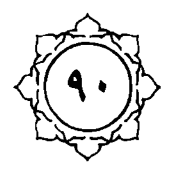
٢ ـ وأما الجوابُ عن السُّؤالِ الثاني ، فإنه في الآيةِ الرابعةِ قدَّم الأسوة ؛ لأن الكلامَ يدور عليها ، وقد بيَّنها بقوله : ﴿ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ . . . ﴾ فكانتِ الخصلةُ هي محطَّ الاهتمامِ .

وأما في الآيتينِ الأخريين فلم يذكرِ الخصلةَ ، وإنما ذكر المؤتسىٰ به فقط ، فقدَّمه علىٰ الأُسوةِ ؛ لأن المؤتسىٰ به هو محطُّ الاهتمامِ .

لقد أطلق التأسِّي في هاتين الآيتين ليشمَل كلَّ الأمورِ الحسنةِ ، ولذا أكَّد في هاتين الآيتين أكثرَ ما أكد في الآية الأولىٰ ، فقد قال في الأولىٰ : ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ ﴾ ، وأما في الآيتينِ الأخريينِ ، فقد قال : ﴿ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ ﴾ فجاء باللام الواقعة في جوابِ القسمِ إضافةً إلىٰ (قد) .

ثم أبدل في الآيةِ السادسةِ ، فقال : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ ﴾ وكذٰلك قال في آية الأحزاب ؛ للدلالة علىٰ أهمية التأسِّي بهـٰؤلاء المصطفين ، وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الممتحنةِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ ﴾ بالاسميةِ ، وقال : ﴿ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ ﴾ بالفعلِ ولم يجعلهما علىٰ نمطٍ واحدٍ ، فيقول مثلاً : (لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم حِلٌّ لهن) ، أو : (لا هن يحللن لهم ولا هم يحلُّون لهن) ؟

الجوابُ

من المعلومِ أن الاسم يدل علىٰ الثبوتِ ، والفعل يدل علىٰ الحدوثِ والتغيرِ ، فعبر عن المؤمناتِ بالاسمِ ؛ لأن الحكمَ لا يتغير بالنسبة إليهن ، ولا يجوز منهن التغييرُ .

وعبَّر عن الكفارِ بالفعل ؛ لأنه يتغير الحكم بتغيرهم بأن يسلموا .

فالحكمُ في حقهن ثابتٌ أبداً ، ومن الممكن أن يتغير الحكم بالنسبة إليهم إذا غيروا دينهم إلىٰ الإسلامِ .

جاء في (روح المعاني) : « ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ الجملةُ **الأولىٰ** لبيان الفرقةِ الثابتةِ وتحقق زوالِ النكاحِ في الأولِ .

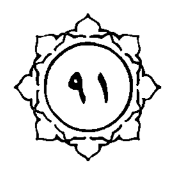
والثانية : لبيانِ امتناعِ ما يستأنف ويستقبل من النكاح ، ويُشعر بذٰلك التعبير بالاسمِ في الأولىٰ والفعلِ في الثانيةِ .

وقال الطَّيبي في وجه اختلافِ التعبيرين : إنه أسندت الصِّفة المشبَّهة إلىٰ ضمير المؤمنات في الجملة الأولىٰ ؛ إعلاماً بأن هـٰذا الحكمَ ثابتٌ فيهن ، لا يجوز فيه الإخلالُ والتغييرُ من جانبهن .

وأسندَ الفعلَ إلىٰ ضميرِ الكفارِ ؛ إيذاناً بأن ذٰلك الحكم مستمرُّ الامتناعِ في الأزمنةِ المستقبلةِ ، لـٰكنه قابلٌ للتغييرِ باستبدالِ الهدىٰ بالضلالِ »[1] .

* * *

(١) روح المعاني (٢٨ / ٧٦) .



قال تعالىٰ في سورة المرسلات : ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾ [المرسلات : ٢٩ ـ ٣٠] .

سؤالٌ

في سورةِ المرسلاتِ ذكرَ ٱللّه عقوبةَ الكافرين في الآخرةِ ، فقال : ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾ [٢٩ ـ ٣٠] وما بعدها .

ثم ذكر جزاءَ المتقين ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [٤١ ـ ٤٢] وما بعدها .

ثم عاد إلىٰ جزاءِ الكافرين ، فقال : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [٤٦ ـ ٤٧] وما بعدها .

فلِمَ ذاك ؟ ولِمَ لَم يذكر جزاء الكافرين في مكانٍ واحدٍ ؟

الجوابُ

ليس الأمرُ كما توهم السائلُ ، وإنما جرىٰ ذكر أحداثِ السورةِ ومشاهدها في نمطٍ معينٍ ومنهجٍ واضحٍ ، وذٰلك علىٰ النحو الآتي :

١ - إن المشهد الأول في السورةِ بعد القسمِ بالمرسلات ، وما بعدها إنما هو في أحداثِ يوم القيامةِ ، وهو قوله : ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ . . . ﴾ .

ثم عاد إلىٰ تذكير الناسِ بإهلاك مَن تقدمهم ، وتذكيرهم بنعمِ ٱلله عليهم ليتَّعظوا ، فقال : ﴿ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ۝٢١ . . . ﴾ .

٢ - ثم عاد إلىٰ ذكرِ الجزاءِ في الآخرةِ ، فذكر جزاءَ المكذبين ، ثم ذكر بعده جزاءَ المتقينَ ، وهو ما يقع بعد أحداثِ القيامةِ ، والفصل بين الخلائقِ ، فقال في جزاءِ المكذبينَ : ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝٣٠ . . . ﴾ .

وقال في جزاءِ المتقينَ : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٤٢ . . . ﴾ .

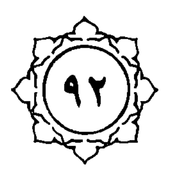
ثم عاد إلىٰ تذكيرِ الناسِ في الدنيا ليتعظوا ، فقال : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ۝٤٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ۝٤٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾ .

فقوله : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ ﴾ إنما هو تهديدٌ ووعيدٌ للكافرين في الدنيا ، فالتَّمتعُ القليلُ إنما هو في الدنيا ، وأما في الآخرةِ فليس لهم تمتعٌ ، لا قليلٌ ولا كثيرٌ .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ وهـٰذا إنما هو في الدنيا ، وليس في الآخرةِ ، وكذٰلك قوله : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فمنهج السورةِ واضحٌ بيِّنٌ ، وهو جارٍ علىٰ حسب جريان الأحداثِ مع التذكيرِ للاتِّعاظِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : ٣٠] .

سؤالٌ

لماذا يخبر ربنا عن الملائكةِ بالتذكير أحياناً ، وبالتأنيث أحياناً أخرىٰ ، فمرَّةً يقول : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : ٣٠] بالتذكير .

ومرةً أخرىٰ يقول : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران : ٣٩] بالتأنيثِ ؟

والجوابُ

إن في القرآنِ خطوطاً تعبيريةً في تذكيرِ وتأنيثِ الملائكةِ ، من ذٰلك :

١ ـ أن كلَّ أمرٍ يصدر إلىٰ الملائكةِ يكون بصيغةِ المذكرِ ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ [البقرة : ٣٤] ، وقوله : ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [البقرة : ٣١] ، فلم يأمرهم بصيغة المؤنث ، فلم يقل مثلاً :

(اسجدي) ونحوه ، وذلك للتنصيص علىٰ أن الملائكةَ ليسوا إناثاً ، كما كان يعتقد أهل الجاهلية الذين حكىٰ ٱلله عنهم ذٰلك بقوله : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ ﴾ [الزخرف : ١٩] .

وغير ذٰلك من الآيات ، فإن الضميرَ (الواو) خاصٌّ بالعقلاءِ الذكورِ ، بخلاف ما لو أمر بالتأنيثِ نحو : (اسجدي) فإنه يكون للأنثىٰ العاقلةِ وغيرها ، ولجماعةِ غير العاقلِ ذكوراً وإناثاً ، وذٰلك نحو : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ ﴾ [سبأ : ١٠] ، وقوله : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ [النحل : ٦٨] وهو من بابِ تصحيحِ المعتقدِ الباطلِ .

٢ ـ كل فعل يقع بعدَ ذكرِ الملائكةِ يكونُ بصيغةِ المذكرِ ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ ﴾ [النساء : ١٦٦] ، ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد : ٢٣] ، ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورىٰ : ٥] ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ [الإسراء : ٩٥] .

فلم يقل : (والملائكة تشهد) ، ولا : (والملائكة تسبح بحمد ربها) ولا نحو ذٰلك .

٣ ـ كلُّ وصفٍ لهم بالاسمِ يكون بصورةِ المذكرِ ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ ﴾ [النساء : ١٧٢] ، ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر : ٢٩] ، ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، ﴿ بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ، فلم يقل مرةً نحو : (الملائكة المقربة) ، أو (من الملائكة مسومة) .

٤ ـ كلُّ فعلِ عبادةٍ يكون بلفظِ التذكيرِ ؛ لأن ذلك أكملُ ، وذلك نحو : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : ٣٠] ، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم : ٦] .

٥ ـ إذا كان ثمةَ أمرٌ أشد من آخر ، كأن يكون موقفا عذابٍ أحدهما أشدُّ من الآخرِ ، جيء بما هو أشدُّ بالتذكيرِ للدلالة على قوةِ الأمرِ وشدته ، وذلك نحو قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٧] .

فجاء بآيةِ الأنفالِ بالتذكير ﴿ يَتَوَفَّى ﴾ ، وبآية محمدٍ ﷺ بالتأنيثِ ﴿ تَوَفَّتْهُمُ ﴾ وذلك أن آيةَ الأنفالِ في سياقِ وقعةِ بدرٍ .

ثم إنه قال : ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آيةِ محمَّدٍ ﷺ كما أنها ليست في سياقِ حربٍ ، فجاء بما هو أشدُّ بصيغةِ المذكَّرِ .

٦ ـ في موقفِ البُشْرىٰ يأتي بصيغةِ المؤنثِ ، فلم تأتِ البشرىٰ بصيغةِ التذكير ، وذلك نحو : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [٣٩] ، ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] .

وانظر كيف جاء في موقفِ الشِّدةِ بالتَّذكيرِ في قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ

ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان : ٢٥ ـ ٢٦] .

وفي موقفِ البُشرىٰ بالتَّأنيثِ ، في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصلت : ٣٠] .

فقال في الأولىٰ : ﴿ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ، وقال في آيةِ البشرىٰ : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ .

قد تقول : لكنَّ الملائكةَ بشرت سيدنا إبراهيم ، وكان الفعلُ الذي أُسند إليهم بصيغةِ التذكيرِ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] .

فنقول : إنه لم يرد ذكرٌ للملائكةِ في هـٰذهِ القصةِ ، بل ورد ذكر الضَّيف ، قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [٢٤] . فأسندَ القولَ إلىٰ الضَّيفِ ، ولم يُسنده إلىٰ لفظِ الملائكةِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة : ١٨٠] .

سؤالٌ

قال تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة : ١٨٠] . بالفعلِ ﴿حَضَرَ﴾ .

وقال في موطنٍ آخرَ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام : ٦١] . بالفعلِ ﴿جَآءَ﴾ ، فما الفرقُ بينهما ؟

الجوابُ

إن الحضور نقيضُ المغيبِ والغيبةِ ، وهو بمعنىٰ الشُّهودِ ، وهو يختلف عن المجيءِ ، وإيضاحُ ذٰلك أنك تقول : (كنت حاضراً إذ كلَّمه أبوك) فهـٰذا ليس معناه أني كنت قادماً حين كلَّمه ، بل معناه : كنت موجوداً حين كلَّمه أبوك .

وتقول : (كنت حاضراً مجلسهم) أي : شاهداً مجلسهم ، لست غائباً ، وليس معناه : كنت قادماً إلىٰ مجلسهم .

ونقول : (ٱللهُ الحاضر في كلِّ مكانٍ) أي الموجودُ في كلِّ مكانٍ [بعلمه] ، وليس معناه : (ٱللهُ القادمُ في كلِّ مكانٍ) أو إلىٰ كلِّ مكانٍ .

ولذا لا يصحُّ أحياناً وضع إحدىٰ الكلمتينِ مكانَ الأخرىٰ .

ففي قوله تعالىٰ في السدِّ الذي صنعه ذو القرنين مثلاً : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ [الكهف : ٩٨] لا يصحُّ أن يقال للمعنىٰ نفسه : (فإذا حضر وعد ربي جعله دكّاء) فإن الوعدَ ـ وهو القيامةُ أو غيرها ـ ليس موجوداً في ذٰلك الوقتِ بل سيأتي .

وفي قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [هود : ٤٠] لا يصحُّ أن يقال للمعنىٰ نفسه : (حتىٰ إذا حضر أمرنا) فكأنه كان موجوداً في مكان آخر ، ثم حضر ، بل هو سيأتي في حينه ، فإن الحضور يُقال لما هو موجودٌ .

وأما المجيء فيحتمل الأمرين : المجيءُ بعد أن لم يكن موجوداً أصلاً ، أو كان موجوداً في مكانٍ ، ثم قدم إلىٰ مكانٍ آخرَ .

قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ [الإسراء : ١٠٤] .

ولا يصحُّ أن يقال للمعنىٰ نفسه : (فإذا حضر وعد الآخرة) .

ونحوه كثير ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ ﴾ [المؤمنون : ٤٤] ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ ﴾ [المائدة : ١٩]، فذٰلك ونحوه لا يصحُّ إبدال : (حضر) فيه بـ : (جاء) .

ونعود إلىٰ الاستعمالِ القرآني لهـٰذين الفعلين في نحوِ : ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ و : ﴿جَآءَ أَحَدَكُمُ﴾ .

فالقرآنُ يستعمل حضورَ الموتِ مع الوصايا والأحكامِ ، أما مجيءُ الموتِ فيستعمله لذكر ما يتعلقُ بالموتِ ، أو ما يتعلق بالناسِ وأحوالهم فيه ، أو فيه وفيما بعده .

وإيضاحُ ذٰلك أنه قال في حضورِ الموتِ : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

فلم يذكر شيئاً يتعلق بالموتِ ، وإنما هو ذكر لوصية يعقوبَ لبنيه عند حضورِ الوفاةِ .

وقال : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ [البقرة : ١٨٠ ـ ١٨١] .

وقال : ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ﴾ [المائدة : ١٠٦] .

وهـٰذه كما ترىٰ في الوصايا ، وليست في ذكرِ ما يتعلق بالموتِ ، فكأن الموتَ يكون شاهداً مع مَن يشهدُ .

وقال : ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ

مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾ [النساء : ١٧ ـ ١٨] .

وهٰذا في حكمِ التوبةِ وأوانها ، وأنها ليست عند حضورِ الموتِ ، فليس في هٰذه الآياتِ شيءٌ يتعلق بالموتِ ، أو بحالةِ المتوفَّىٰ فيه .

وقال في مجيءِ الموتِ : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام : ٦١ ـ ٦٢] .

فذكر أمراً يتعلَّقُ بالموتِ وحالتِهِمْ فيه ، وأنهم يُردُّون إلىٰ ربِّهِمْ بعد ذلكَ .

وقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ... ﴾ [المؤمنون : ٩٩ ـ ١٠١] . وما بعدها .

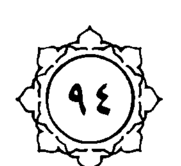
فذكر أنه إذا جاء أحدَهم الموتُ سأل ربه أن يُعيده لعلَّه يعمل صالحاً ، فقد ذكر شأنَ المتوفَّىٰ من هٰؤلاءِ ، ثم ذكر بعده أموراً تتعلَّقُ بالقيامةِ .

وقال : ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق : ١٩ ـ ٢١] .

فقد ذكر أمراً يتعلَّق بالموتِ ، وهو أن الميتَ كان يهرب منه ، ثم ذكر ما بعد الموتِ من أحوالِ القيامةِ .

فاتَّضح أن مجيءَ الموتِ يستعمله القرآنُ لما يتعلَّق بالموتِ ، أو بحالِ الميتِ فيه ، أو فيه وفيما بعده .

* * *



قال تعالىٰ في سورة سبأ: قال تعالىٰ في سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] .

سؤالٌ

يُقال : إن المنسأة هي العصا ، فلماذا استعمل هنا المنسأةَ دون العصا ، في حين استعمل العصا مع موسىٰ ، قال تعالىٰ علىٰ لسان موسىٰ : ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ [طه : ١٨] ؟

الجوابُ

المنسأةُ هي العصا العظيمةُ ، التي تكون مع الراعي يزجر بها البعيرَ ؛ ليزداد سيراً ، واشتقاقها من النَّسْءِ ، وفعله : نسأ .

ومن معاني النسءِ : التأخيرُ في الوقتِ ، ومنه النسيئة وهو : البيعُ بالتأخيرِ . و : (نسأ ٱلله في أجله) أي أخَّره وزاد فيه .

والنسءُ أيضاً : زجرُ الناقةِ ليزداد سيرها ، ونسأها : دفعَها في السيرِ وساقها[١] .

واستعمالها مع سليمانَ هو المناسبُ ؛ لأنها كأنها نسأت في حكمه وأجله ، وكانت كأنها تزجرُ الجنَّ وتسوقهم إلىٰ العملِ ، فهي أنسب من العصا ، فقد أفادت معنيي النَّسْءِ : الزِّيادة في الأجلِ ، والزَّجرِ للسَّوقِ ، يدلُّ علىٰ ذلكَ قولُه تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ .

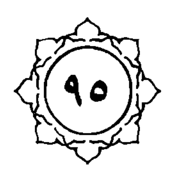
فالمنسأة هي التي كانت تسوقهم إلىٰ العمل ؛ لأنهم يظنون أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يزال حيًّا .

وأما استعمال العصا مع موسىٰ فهو الأنسب ، فإن الغنمَ لا تحتاج إلىٰ عصا عظيمة لسوقها .

كما أنه استعملها في مقامِ الرَّأفةِ بالحيوانِ والرحمةِ به ، فقد قال : ﴿ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ أي : يخبط بها أوراق الشَّجر ؛ لتأكله الماشيةُ فلا يناسب استعمال المنسأةِ ، فناسبَ كلٌّ تعبيرٍ مكانَه .

* * *

(١) انظر : لسان العرب (نسأ) .



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] وقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

سؤالٌ

ما الفرقُ بين قوله تعالىٰ : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] وقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة : ١٩٨] ؟

الجوابُ : إن قوله : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ جملةٌ اسميةٌ ، وقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ جملةٌ فعليةٌ .

والجملةُ الاسميةُ أقوىٰ وأثبتُ من الفعليةِ .

ثم إن (لا) تفيدُ توكيدَ النفي ، وذٰلك أنها متضمنةٌ معنىٰ : (من) الاستغراقيةِ ، يقول النحاةُ : وهي نظيرُ : (إنّ) في توكيدِ الإيجابِ[1] ، وهي آكد من (ليس) .

---

(١) انظر : ابن الناظم (٧٤) ، الهمع (١ / ١٤٤) ، التَّصريح (١ / ٢٢٥) ، جواهر الأدب (١٢٥) .

ومعنىٰ هـٰذا أن قولَه : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ آكدُ وأقوىٰ وأثبتُ من قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ .

ويوضِّح ذٰلك الاستعمالُ القرآنيُّ للعبارتين ، فإنه يستعمل : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فيما هو أهمُّ من المواطنِ التي تستعمل فيها : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ فهو يستعملها في أمورِ العباداتِ ، وفي تنظيمِ شؤونِ الأسرةِ ، وفي الأمورِ المهمةِ علىٰ العمومِ .

وأما قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ فإنه يستعمله فيما هو دون ذٰلك من أمورِ الحياةِ ، وما هو أقلُّ أهميةً علىٰ العموم .

قال تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، وهـٰذا أمرٌ يتعلقُ بالعبادةِ .

وقال : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، وهـٰذا يتعلَّقُ بتنظيمِ الأسرةِ ، وحقوقِ كلٍّ من الزوجين .

وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٣٤] .

وقال : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] ، وهي كما ترىٰ في شؤونِ تنظيمِ الأسرةِ ، وفي الحقوقِ والواجباتِ .

وأما قوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فيستعمله فيما هو أقلُّ شأناً من أمورِ الحياةِ كما ذكرت .

قال تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ [المائدة : ٩٣] .

وقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ [النور : ٢٩] .

وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ [النور : ٦١] .

وقال : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

فأنت ترىٰ أنه استعملها فيما هو أقلُّ أهميةً مما قبلها .

قد تقول : ولٰكنه قال : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة : ١٩٨] ، وهٰذا يتعلّق بأمورِ العباداتِ .

فنقول : كلا ، وإنما هو يتعلَّقُ بالتجارةِ في موسمِ الحجِّ ، فإنه قال : إنه لا مانعَ من التِّجارةِ وابتغاءِ الرِّزقِ في الحجِّ .

ويوضِّح ذٰلك استعمالُ كلٍّ من التعبيرينِ في آيتينِ متتابعتينِ ، وهما قوله : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء : ١٠١] .

وقوله في الآيةِ بعدها : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ ﴾ [النساء : ١٠٢] .

فقال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ ، وقال بعدها : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

ذٰلك أن الآيةَ الأولىٰ في السَّيرِ في الأرضِ للتجارةِ أو غيرها ، فقال : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ .

أما الآيةُ الثانية ففي الجهادِ ، يدلُّ علىٰ ذٰلك قولُه : ﴿ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ ﴾ ، وقولُه : ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ ﴾ ، فقال : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فدلَّ ذٰلك علىٰ ما ذكرناه ، واللهُ أعلمُ .

* * *



سؤالٌ :

ما الفرق بين الكَرهِ والكُرهِ ؟

الجوابُ

قيل : هما واحدٌ ، وقيل : الكُره بالضَّمِّ اسمُ مفعولٍ ؛ أي مكروهٍ كالخُبز بمعنىٰ المخبوز ، والكَره بالفتح المصدر[١] .

وقيل : « الكَره ـ بفتح الكافِ ـ المشقةُ التي تنال الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحمل عليه بإكراه .

والكُره ـ بضم الكاف ـ ما يناله من ذاته وهو يعافه »[٢] .

وجاء في (البحرِ المحيطِ) : « وقيل : الكُره بالضمِّ ما كرهه الإنسانُ ، والكَره بالفتحِ ما أُكره عليه »[٣] .

وعلىٰ هـٰذا المعنىٰ جرىٰ استعمالُ القرآنِ .

---

(١) انظر : البحر المحيط (٢ / ٣٦٢ ـ ٣٧٩) .
(٢) المفردات في غريب القرآن (كره) .
(٣) البحر المحيط (٢ / ٣٦٢) .

فإنه يستعمل الكَره ـ بفتحِ الكافِ ـ لما ينال الإنسان من الخارجِ من مشقةٍ ، ولذا يقابله بالطَّوع .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

وقال : ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ ﴾ [التوبة : ٥٣] .

وقال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ [الرعد : ١٥] .

وقال : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا ﴾ [فصلت : ١١] .

ولم يقابلِ الطَّوعَ بالكُرهِ بضمِّ الكافِ .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا ﴾ [النساء : ١٩] ، أي : بالإكراهِ .

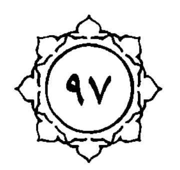
وكلُّ ذٰلك يدلُّ علىٰ ما يناله من المشاقِّ من الخارجِ ، وما يُكره عليه .

في حينِ قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، أي : إن كرهَ القتالِ أمرٌ يعودُ إلىٰ الطبعِ ، فإن القتالَ مكروهٌ للإنسانِ .

وقال : ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗا ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

والحملُ والوضعُ مشقَّتان تنالان المرأةَ ، وهما مكروهان لها ؛ لما فيهما من آلامِ الحملِ والوضعِ والمشقةِ فيهما .

* * *



سؤالٌ

ما الفرق بين النبأ والخبر ؟

الجوابُ

النبأ : أهمُّ من الخبرِ وأعظمُ ، جاء في (المفرداتِ) للرَّاغبِ : « النبأ : خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ ، يحصلُ به علمٌ ، أو غلبةُ ظنٍّ »(١) .

وكذٰلك استعملها القرآن ، قال تعالىٰ : ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ : ١ ـ ٢] .

وقال : ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [صٓ : ٦٧ ـ ٦٨] .

ولم يستعمل (الخبر) بصورةِ الإفرادِ إلا في قصةِ موسىٰ في قوله : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل : ٧] ، وقوله : ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص : ٢٩] .

ولا شكَّ أن الخبرَ الذي بغاه موسىٰ لا يرقىٰ إلىٰ أهميةِ النبأِ العظيمِ .

---

(١) المفردات (نبأ) .

ومن الملاحظِ أن القرآنَ لم يستعملْ لأخبارِ الماضينَ من الرُّسل ، أو غيرهم إلا الأنباءَ .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

وقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [إبراهيم : ٩] .

وقال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ ﴾ [صۤ : ٨٨] .

وقال : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر : ٤] .

قد تقول : ولـٰكنه استعمل الأخبارَ في أمر يدلُّ علىٰ عظيمِ أهميتِها ، فقد قال ربنا : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] .

فنقول : إن هـٰذا يدلُّ علىٰ عظيمِ البلاءِ ، فإنه إذا بلا الأخبارَ مع أنها أيسرُ من الأنباءِ فهو سيبلو الأنباءَ من بابِ أولىٰ ، فإنه إذا بلا اليسيرَ فإنه سيبلو العظيمَ من بابِ أولىٰ ، ولو قال : (ونبلو أنباءكم) لم يدل علىٰ أنه يبلو الأخبارَ ، بل هو سيتركها ؛ لأنها أهونُ ، فلما ذكر أنه يبلو الهيِّنَ دلَّ علىٰ أنه يبلو العظيمَ ولا شكَّ .

وقد تقول : ولـٰكنه ذكرَ الأخبارَ في الأمورِ العظيمةِ ، وهي الآخرةُ ، فقد قال :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة : ١ ـ ٥] .

فنقول : هـٰذا يدلُّ علىٰ عظمِ ما سيكون في اليومِ الآخر ، فهـٰذه هي الأخبارُ ، فما بالك بالأنباءِ ؟ !

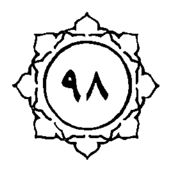
فإنه ستحدث أمورٌ أكبرُ وأعظمُ من الزَّلزلةِ ، من مثل قولِهِ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار : ١ ـ ٣] .

ومن مثل قولِهِ : ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ [الواقعة : ٥ ـ ٦] .

وقولِهِ : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمـٰن : ٣٧] ، وغير ذٰلك من الأمورِ العظيمةِ .

وهـٰذا تحذيرٌ عظيمٌ ، فإذا كانت هـٰذه هي الأخبارَ ، فما بالك بالأنباءِ ؟

* * *



سؤالٌ

العدد في القرآنِ الكريمِ هل يُراد به حقيقةُ المذكورِ أو يُراد به التكثيرُ ؟

الجوابُ

إن العدد مذكورٌ في القرآنِ في أكثرِ من سياقٍ ومقامٍ :

١ ـ فقد ذُكر في الأحكامِ ، وذٰلك نحو قولِهِ : ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

وقوله : ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة : ٨٩] ، وهـٰذا يُرادُ به العددُ المذكورُ حتماً .

٢ ـ وقد يُذكرُ في الإخبارِ عن أمورٍ أو حوادثَ مختلفةٍ ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة : ٧] .

وقوله : ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

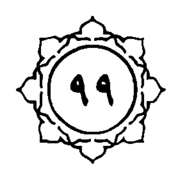
وقوله : ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف : ١٥٥] ، وهـٰذه الأعدادُ يُراد بها حقيقةُ ما ذُكر أيضاً .

٣ ـ هناك أعدادٌ اختلفوا فيها ، أتُراد حقيقتها أم يُراد بها التّكثيرُ ، وذٰلك نحو قولِهِ : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] .

والذي نرجِّحه أنه يُراد به حقيقتها ، والدَّليلُ علىٰ ذٰلك ما جاء في الخبرِ ، أن الرَّسول ﷺ قال : « **سمعت ربي رخَّص لي فلأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين ، فلعل ٱلله يغفر لهم** » . حتىٰ نزل قوله : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون : ٦][١] .

* * *

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٢ / ٣٧٦) .



سؤالٌ

لماذا لم تتكررْ قصةُ يوسفَ في القرآنِ كما تكررتْ قصصُ الأنبياءِ الآخرينَ ؟

الجوابُ

نقول أولاً : ليست قصةُ يوسفَ هي الوحيدةَ التي لم تتكرر في القرآنِ ، وإنما هناك قصصٌ أخرىٰ لم تتكرر ؛ منها قصةُ سليمانَ والهدهد ، وقصةُ ذي القرنين ، وقصةُ موسىٰ والخضر ، وقصةُ أصحابِ الكهفِ وغيرها .

أما الجوابُ عن قصةِ يوسفَ ، فإن هـٰذه القصةَ ليس فيها تعليماتٌ ، ولا أحكامٌ ، ولا دعوةُ قومٍ من الأقوامِ إلىٰ ما دعا إليه الأنبياءُ الآخرون ، وليس ليوسفَ ولا لأبيه مع قومِهِ شأنٌ من شؤونِ الدعوةِ .

وبذا هي تختلفُ عن رسالاتِ الأنبياءِ الآخرين ، من دعوةِ أقوامِهم إلىٰ التوحيدِ وتركِ عبادةِ الأصنامِ ، والنَّهي عن الشِّرك والعقائدِ الباطلةِ ، ونهيهم عن أعمالٍ كانوا يرتكبونها من مثلِ التَّطفيفِ بالموازين والكيل ،

وإتيانِ الذكرانِ ، وغيرها من الفواحشِ ، ودعوتهم إلىٰ صالحِ العملِ ، وهي أُسسٌ عامةٌ لجميعِ الأقوامِ والمجتمعاتِ علىٰ مرِّ الزمانِ .

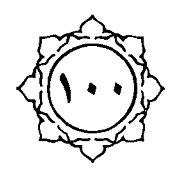
أما قصةُ يوسفَ ـ علىٰ ما فيها من عبرٍ ـ فهي تحكي قصة شأنٍ عائليٍّ ، وليست رسالةً إلىٰ مجتمعٍ أو قومٍ من الأقوامِ .

وأما ما قاله يوسف إلىٰ السَّجينينِ معه : ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] ، فهٰذا جاءَ عرضاً استغلَّه يوسفُ للدعوةِ إلىٰ ٱلله ، وهو بصددِ تعبيرِ الرؤيا ، ولم يذكرِ القرآنُ لنا أن يوسفَ كان مُكلَّفاً بتبليغِ رسالةٍ ما إلىٰ قومِه أو إلىٰ غيرهم .

وحتىٰ لو كان يوسفُ رسولاً من رسلِ ٱلله ، كما يفهم من قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ [غافر : ٣٤] ، لٰكنه لم تُذكر هٰذه الرِّسالةُ ، ولا بما أُرسل .

فاختلف الأمرُ عن بقيةِ قصصِ الأنبياءِ ؛ الذين تكرَّرَ الحديثُ عنهم .

* * *



سؤال

ما الفرق بين فتح ٱلله عليك وفتح ٱلله لك

نسمعُ أحياناً داعياً يدعو لصاحبه بقوله : (فتح ٱلله عليك) ، ويقال : إن هـٰذا الدعاءَ غيرُ مناسبٍ ؛ لأن (فتح ٱلله عليك) لا يقال في الخيرِ ، وإنما يقال في الشرِّ فقط ، والصوابُ أن يقال : (فتح ٱلله لك) فما حقيقةُ الأمرِ ؟

الجوابُ

إن الاعتراضَ غيرُ واردٍ ، وإنما يصحُّ أن يقال : (فتح ٱلله عليك) في الخيرِ والشرِّ ، بحسب ما يُبيِّن الدَّاعي أو المخبرُ أو ينويه .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

وقال علىٰ لسانِ بعضِ أهلِ الكتابِ : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٦] .

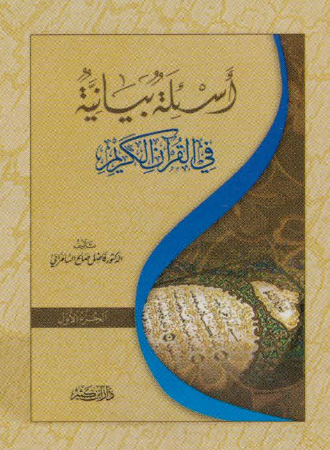
وهٰذا في الخيرِ كما هو واضحٌ .

وقد يُستعمل في العقوباتِ والشَّرِّ ، قال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٧] .

* * *

فهـــرس الموضـــوعات

* * *



أسئلة وإجابات حول الأسلوب البياني في القرآن الكريم، مرتبة حسب تسلسل الموضوعات في المصحف الشريف.

ويجد القارئ لفتات عميقة، ونظرات صائبة، تدل على حسن التفهم، والربط بين الآيات، تأكيداً لإعجاز القرآن، وأنه موحى من لدن حكيم عليم.

واعتمد المؤلف على المصادر الموثوقة المعتبرة لدى العلماء، من التفاسير، والمعاجم، وكتب الغريب، وبعض المراجع الحديثة ذات الصلة بموضوع هذا الكتاب، وهي بمجموعها تزيد على الثلاثين مصنفاً.

وأسلوب السؤال والجواب يثير الفكر، ويحرض العقل على التأمل والتدبر، ويساعد على الحفظ والاستظهار، واستحضار الجواب عند المذاكرة في نصوص التنزيل.

ISBN 978-614-415-040-5




www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com